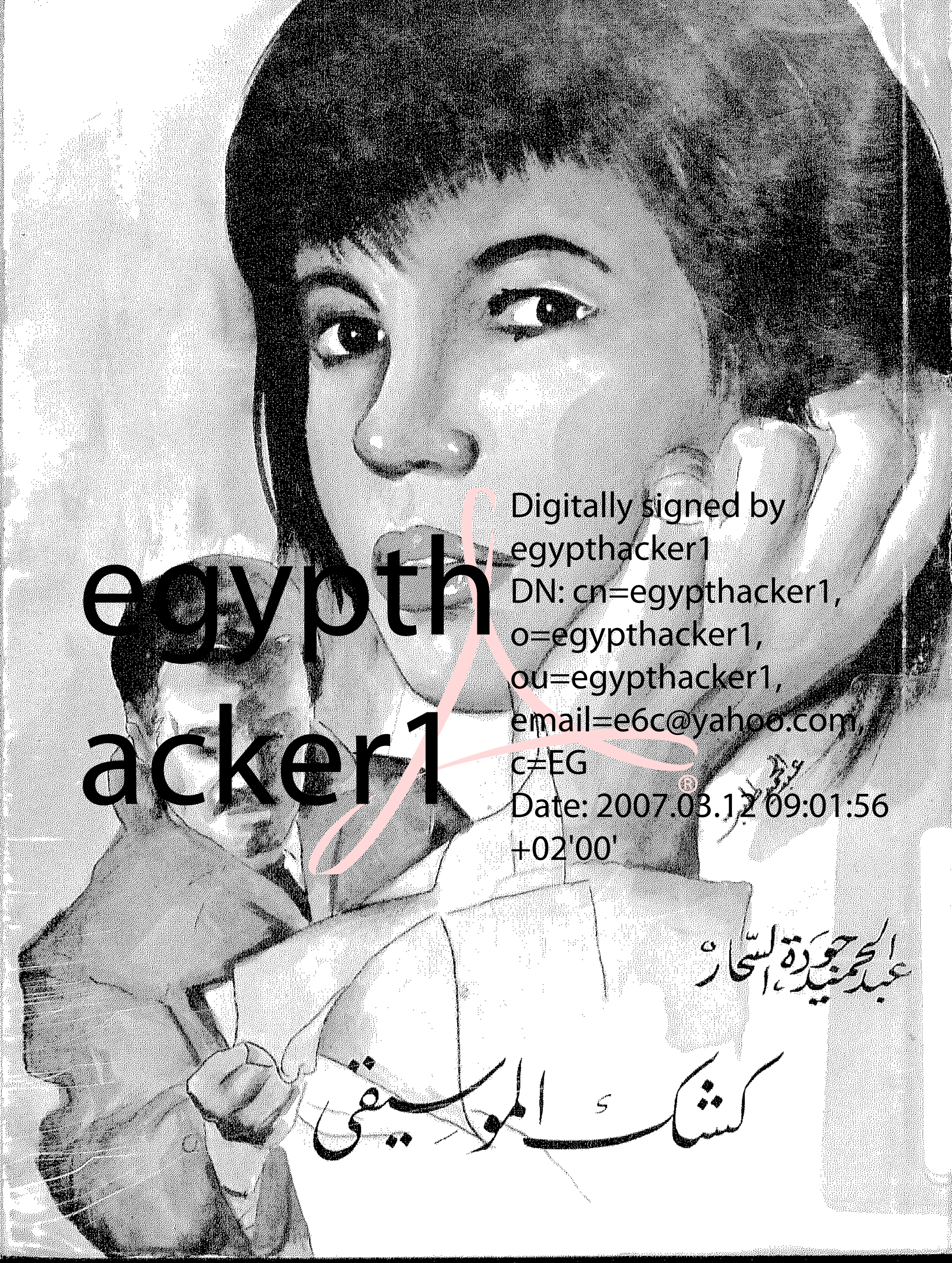

عبد الحميد جودة السحار
كشك الموسيقى

مطبوعات مكتبة مصر

كشكول الموسيقى

تأليف

عبد الحميد جوده السحار

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي " الفجالة "

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

صفقة

كان الرجل ينظر الى المروج الخضر من نافذة قطار الشرق وهو شارد ، كان غارقا فى تفكير عميق . انه منذ يومين وهو منطلق الى الغرب لا يشغل رأسه الا موضوع واحد .. موضوع الأسلحة التى سيعرضها على وزير الحربية فى الامبراطورية التى يقصدها . انه يتعجل الزمن فالقطار يقطع المسافة بين مقر شركته والبلد الذى يقصده فى ثلاثة أيام ، فما كان الطيران قد عرف بعد .

انه لم ير الوزير بعد . ولكن شركته قدمت اليه صورته وبعض معلومات طفيفة لا تخدم من يقدم على صفقة كبيرة قد ترفع شركته الى مصاف الشركات الكبرى ، بل وتجعلها أكبر شركة تعمل فى توريد أسلحة الدمار .

ان الشركة نجحت فى أن تحصل على سر خطير .. سر تأهب الامبراطورية للهجوم على الدول المحيطة بها ، وقد نجحت فى أن تتصل بوزير الحربية وأن تحدد ميعادا لاستقبال مندوبها للتفاوض على اتمام صفقة كبيرة تحقق أهداف الامبراطورية وأهداف الشركة وأهداف الجميع .

وطفت على سطح ذهنه أحداث ذلك الاجتماع السرى الذى

وترك القصة على المكتب ونهض مستأذنا وانصرف ، وما أن عاد الى غرفته بالفندق حتى تملكه خوف شديد .. انه تسرع بتقديم القصة .. ترى ماذا يكون مآله اذا رفض صاحب السعادة الرشوة وثار لكرامته وأصدر أمرا بالقبض عليه ؟ سيلقى به فى السجن وسيحاكم بتهمة رشوة موظف عمومى ، موظف عمومى ؟ ! انها رشوة وزير وأى وزير ؟ وزير الحربية ؟ !

وتضخمت مخاوفه فألفى نفسه يسير بين جنديين ومن خلفه جندى مدججين بالسلاح . أنه رأى هؤلاء الجنود الغلاظ فى ممرات الوزارة وهو فى طريقه الى مكتب صاحب السعادة . وتقفز خياله الى بيته .. انه ترك ابنته وخطيبها على أمل أن يكون الزفاف بعد عودته . ترى أيفسخ الشاب خطبته من ابنته اذا ما بلغه انه قد قبض عليه وسجن ؟ انه سيفسخها من غير شك ليدرأ عن نفسه فضيحة زواجه من ابنة سجين . ولكن الشاب يحبها .. يحبها حقا ، انه لن يفسخ خطبته .. لا .. بل سيفسخها فالحب وحده لا يقيم أسرة ، والسنة الناس قادرة على تقويض أى بيت يهب عليه أعصار الريبة . الريبة ؟ انها ليست ريبة .. انه اليقين .

وزوجتى ؟ يا للمسكينة ! كيف ستعيش بين الناس بعد الفضيحة ؟ سينبذها المجتمع .. سيفر منها الناس لأنها زوجة سجين . أنا وحدى الذى أخطأت . الناس كلهم خطاءون . ذنبى أن خطئى كشف عنه الغطاء .. أما اخطاؤهم فلا تزال مستورة ، والويل لمن يفتضح أمره بين الخطائين .

وارتمى على السرير وهو يصيح فى حنق :

— قساة .. قساة .. غلاظ القلوب .

ومدد بملابسه على الفراش وحاول أن يطرد عن رأسه تلك

أفكار السعود ، ولكن الخواطر راحت تتوافد على ذهنه نوافد الموج . انه راح يذكر فى شركته بعد أن افتضح أمره .. ان مجلس الادارة الذى اجتمع قبل سعره وفوضه فى فعل كل شيء وأى شيء ليحصل على الصفقة قد اجتمع وقرر فصله وأرسل كتابا الى سعادة الوزير يعتذر فيه عما ارتكب مندوبها من حماقة وتهور ، ويبدى شديد أسفه على الفعلة الشنعاء التى نال مرتكبها ما يستحقه من عقاب .

وهب من رقدته مذعورا واخذ يذرع الغرفة جيئة وذهوبا وهو يترقب ، يلتفت بين لحظة وأخرى ناحية الباب . انهم سيقدمون ليلقوا القبض عليه . ماذا ينتظر ؟ لماذا لا يحمل حقائبه ويفر . ولكن أين المفر ؟ وهو الآن ولا ريب تحت الحراسة .

وضج فى جوقة فحيح سرى فيه مسرى السم : متهور .. مندفع .

انها همسات مرعوسه الحاقد الذى يطمع فى مركزه .. انها وخزاته التى يخزها فى خبث ودناءة ، فيا لفرحته يوم يأتى نبأ القبض عليه . سيقول فى زهو وشماتة : ألم أقل لكم ؟ ألم أحذركم ؟ كنت أكثر منكم فراسة . لو أطعتمونى لدرأتم عن الشركة الفضيحة القاتلة . اننى أرجح منه عقلا وأكثر منه حنكة ، فلو كنتم أرسلتمونى لاتمام تلك الصفقة ، لما انهارت أسهم الشركة ولما أشرفت على الافلاس .

ان مرعوسه يتمنى أن يزاح من طريقه .. انه يذكر تلك الأيام القاسية التى دهمه فيها المرض . كان مرعوسه يأتى كل يوم ليطمئن الى أنه لن يشفى من مرضه ولن يعود الى عمله .. من حق كل انسان أن يتمنى لنفسه ما يشاء من الأمانى ولكن ليس على جثث الآخرين ونكباتهم .

وحانت منه التفاتة الى صورته فى مرآة الغرفة ، فراعه ذلك الشحوب الذى اعتراه . انه يكاد أن ينقض من الاعياء .. الغرفة تدور به .. انه يستشعر اختناقا .. ليت الباب يفتح ويلقون القبض عليه ليستريح من قسوة الترقب والانتظار . ولم يستطع أن يظل منتصبا على قدميه فارتمى على الفراش يشـــهق فى قوة ، ويزفر الهواء وهو يرجو لو أن متاعبه تخرج مع زفيره .

وولج الليل فى النهار فساد الغرفة ظلام ، فهب مفزوعا يضىء الأنوار لا ليفر من الظلمات بل ليهرب من نفسه . وعاد الى الفراش وصوب عينيه الى السقف ولم يكن يرى شيئا ، فالأحداث التى كانت فى خاطره كانت أوضح من كل ما يراه .

ودقت ساعة الفندق معلنة انتصاف الليل وهو يتقلب كأنما يتقلب على جمر لم يغمض له عين ، وراح الوقت يمر بطيئا ثقيلا . وبعد مدة كأنها دهر دقت الساعة الواحدة فأسدل جفنيه على مقلتيه لعل النوم يطوف به ولكن هيهات .

ان الصور تتداخل فى رأسه .. صورة ابنته وخطيبها . ثم صورته وهو يسير بين جنديين شديدين وخلفه جندى ثالث وهم شاهرو أسلحتهم ، ثم صورة مجلس الادارة ، وصورة زوجته ، ثم صورة مرءوسه الحاقد وهو ينفث سمومه فى كل مكان .

ودقت الساعة معلنة الثانية صباحا فقام يطل من النافذة لعل الهواء البارد يطرد ما فى رأسه من أشباح ، او لعـــله يتجمد من البرد ويستريح . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث فعاد وارتمى يائسا فى الفراش .

ونال منه الاعياء فراح الوسن يداعب جفنيه ، وسمع الساعة

تدق الثالثة فى صوت خافت كأنما يأتى من أعماق سحيقة وما لبث أن راح فى سبات .

وهب من نومه مذعورا على صوت طرقات على الباب ، وفى مثل لمح البصر تذكر كل شيء .. انهم يأتون ليقبضوا عليه . وسار الى الباب يترنح فلما فتحه وجد جنديا يقول فى لهجة آمرة :

— صاحب السعادة الوزير يطلبك الساعة .

واخذ يجمع شتات نفسه ويقوى عزيمته . انه قد انتهى فليس من الحكمة أن يبدو جبانا . وارتدى ثيابه وجعل يبالغ فى تأنقه ، ثم سار وفتح الباب وانطلق ثابت الخطو يحاول أن يبدو هادئا وان كانت روحه تكاد أن تفر بين جنبيه رعبا .

وقاده الجندى الى مكتب صاحب السعادة . فما أن ولج الباب حتى الفى الوزير متطلق الوجه وعلى شفتيه ابتسامة عريضة وهو يتقدم ليقابله فى منتصف الغرفة وقد مد له يده ليصافحه فى ود وترحيب .

أين مقابلة اليوم من مقابلة الأمس ؟ وفى لحظة مات كل خوف وأشرقت النفس بالأمل .

وجلس الرجل فى مقعد وثير وجلس صاحب السعادة أمامه وهو يرحب بة ترحيبا حارا ثم قال :

— كانت القصة ممتعة .. انها من أروع القصص التى قرأتها فى حياتى ...

وقال الرجل فى فرح :

— كنت على ثقة من أنها ستروق سعادتك .

وتململ صاحب السعادة فى كرسيه وقال :

— ولكن للأسف ..

فسأل الرجل فى خوف :

— ماذا يا صاحب السعادة ؟

— لم تكتمل متعتى .

— لماذا يا صاحب السعادة ؟

— ان هذه القصة من ثلاثة اجزاء ،ولم تعطنى الا الجزء الأول منها ، فلما أتممت قراءته ازددت شوقا الى الجزاين الآخرين ، حقا ان كل جزء منهما فى ألف صفحة ولكنى ألتهم مثل هذه القصص التهاما .

— أيسمح لى صاحب السعادة أن آتيه الليــلة بالجزأين الآخرين ؟

فقال صاحب السعادة فى بساطة وود :

— انى أدعوك على الغداء يا صديقى ولتأت بالجزأين معك لأنى أحب القراءة بعد الغداء .

ونهض الرجل وصافح صاحب السعادة وانصرف بقــامته القصيره وهو يحس أنه قد بلغ السقف طولا .. حتى أنه طأطأ رأسه ليمر من الباب .

روما ١٩٧٣/٦/٢٠

معقول

وضعت أضابير الكسب غير المشروع على نضد جلس خلفه ثلاثة قضاة ، ومد كل منهم يده وجذب ملفا راح يقرؤه فى امعان ، ثم رفع أحدهم رأسه والتفت الى كاتب الجلسة وقال وهو يدفع اليه بالملف :

— يستدعى صاحب هذا الملف لجلسة الأسبوع الأخير من الشهر القادم ..

وساد الصمت ثانية فقد عاد القضاة الى فحص الملفات وقد ظهر فى وجوههم الجد والاهتمام ، وأخذ كاتب الجلسة يسجل كل ما تتحرك به الشفاه . وارتفع صوت أحدهم فجأة قال :

— انى سأتنحى عند نظر هذا الموضوع .

فالتفت زميلاه اليه وقال أحدهم :

— لماذا ؟

وبدافع من حب الاستطلاع مد يده وأخذ الملف من زميله وراح يفحصه عنه فى اهتمام ، ثم قال مداعبا :

— لا أرى تشابها بين اسمك واسمه .

فقال الأول فى هدوء :

ـــ لا توجد صلة قرابة بينى وبينه ، ولكنه كان زميلى فى الفصل .

ـــ وهل هذا عذر كاف لتتنحى ؟ !

ـــ انه لم يحصل الا على البكالوريا ، وهو يذكر فى اقراره أنه يملك مائة وخمسين ألفا من الجنيهات .

فقال الذى كان يقلب صفحات الملف :

ـــ ولم يذكر من أين جاءته هذه الثروة .

فقال ثالثهم :

ـــ لعله ورثها أو ورث بعضها ، فالمال يتكاثر فى كل عصر .

فقال الأول :

ـــ أنه كان كثيرا ما يتأخر فى دفع مصروفات المدرسة ، وما كانت تزيد فى السنة على ستة جنيهات .. ولا أحب أن أذكر أننا ـــ طلبة فصله ـــ كنا نتعاون على سداد الأقساط .

ـــ كل هذا لا يدعو الى أن تتنحى .

ـــ اننى أعرف أنه كان طوال حياته خاملا ، ولم يكن فى يوم من الأيام أكثر من كاتب كآلاف الكتبة الذين تغص بهم مصـــالح الحكومة ، فمن أين له مائة وخمسون ألفا من الجنيهات ، وأنا لا أملك مائة وخمسين ألفا من المليمات وقد قاربت على سن المعاش . لا أحب أن أحكم بما أعلم ، وأكره أن أرى صديقا قديما لى وهو أمامنا يتوارى خجلا .. ويجفف عرقه ولا يجد لسانه .

فدفع الذى بيده الملف بالملف الى كاتب الجلسة ، وهو يقول :

ـــ هام وعاجل جدا ، يستدعى صاحب هذا الملف للجلسة الأولى من الشهر القادم .

فقال الأول :

— لن أحضر تلك الجلسة .. ينتدب من يحل مكانى .

— بل تحضر وتتنحى عند نظر هذا الموضوع .

وجاء اليوم الموعود ، وفتح المصعد وخرج منه رجل أشيب قصير القامة دميم الخلقة يكاد يملأ وجهه أنفه الكبير ، وكان يرتدى بذلة من الموهير الأسود تتدلى من عنقه كرافتة تعلن أن لابسها من الأثرياء .

وولج الرجل باب مقر اللجنة ووقف يتلفت لا يدرى أين يذهب ، فاذا بأحد الحجاب يسرع اليه ويقوده الى غرفة بها نضد طويل جلس حوله بعض الرجال ، وخلف النضد شنن لحفظ الملفات ولفافات الحصر التى أسندت الى الحائط ، فأحس فى قرارة نفسه امتعاضا ولكنه توجه الى كرسى عند رأس النضد وجلس وهو يحيى الموجودين بايماءة خفيفة من رأسه .

وقال له الحاجب فى جفاء :

— الاخطار .

فأخرج من جيبه مظروفا أصفر وأخرج منه كتاب استدعائه ودفع به الى الحاجب فى ثبات ، وما ان استقر حتى راح ينقل عينيه فى الموجودين ... كان كل منهم قد جاء ومعه مستنداته .. وضعها أمامه فى ملف أو ظرف كبير أو فى حقيبة من الجلد . ولوى شفته السفلى فى سخرية فقد جاء وليس معه مستند واحد يبرىء ساحته .

وكأنما ضاق الناس بالصمت الذى خيم عليهم ، وكأنما أراد كل منهم أن يفر من الوحدة القاتلة التى فرضها على نفسه ، فاذا بكل منهم يبث شكواه لجاره .. كان أحدهم فى المعاش فراح يشرح مصدر ثروته التى يسألونه عنها بعد أن ترك خدمة الحكومة منذ خمس سنوات ، قال انه اشترى أرضا استصلحها ، وانه كان يبيع

محصولها ، وان مرتبه كان يمكنه من شراء الأرض فهو يسكن فى بيت الأسرة لا يدفع ايجارا ، وأنه كان يعيش من الخيرات التى كانت تأتيه من البلد ..

وتحدث رجل فى عصبية ، قال انه يعمل فى شركة تأمين .. حقيقة أنه لا يحمل شهادة عليا ولكن نشاطه مكنه من أن يحصل على أموال كثيرة .. هل تعرف اللجنة حقيقة وظيفة موظف التأمين ومقدار عمولاته؟ !.

وراح سائق يروى بلهجة بلدية فكهة مشكلته .. انه لم يعمل فى الشركة أكثر من شهر واحد ، فالبيت الذى يسألونه عنه قد ورثه هو وأخوته الأربعة عن أبيه ، وقال :

ــ دا حتى بيت لا طلع ولا نزل .. يعنى خلاص ما فيش فى البلد دى حرامية الا احنا .

وانطلقت تعليقاته الظريفة فمحا ما خيم على المكان من كآبة ، وأشاع البهجة فى النفوس القلقة الخائفة .

وجاء الحاجب واشار للرجل الأنيق أن يتفضل ، فسار فى خطى ثابتة حتى دخل على اللجنة فألفى اثنين يرمقانه من وراء مكتب صفت فوقه بعض الأضابير ، فأحس أن نظراتهما غير ودية فلم يحفل بذلك ، بل ألقى عليهما التحية فى رقة ، فلم يسمع لتحيته جوابا ، فجلس أمامهما على الكرسى الخالى دون أن تختلج منه خلجة ..

وبدأ أحد الرجلين يلقى أسئلته وكاتب الجلسة يدون كل مايسمع :

ــ اسمك ؟

وقبل أن يفتح فمه كان الذى ألقى السؤال يجيب فى تؤدة ليكتب الكاتب الاسم . وقد عجب صاحبنا فى نفسه لذلك فهم يعرفون

اسمه من غير شك وقد استدعوه باسمه قبل أن يدخل ، ولم تسنح له فرصة أكبر للعجب والتعجب ، فقد صك أذنيه صوت الرجل العابس :

— تاريخ ومكان ميلادك ؟

— القاهرة عام ١٩١٨

— الشهر .. ؟

— ٢٧ مايو ١٩١٨

— ذكرت فى اقرار الذمة المالية أنك تملك عقارات وسندات قيمتها مائة وخمسون ألفا من الجنيهات .

— نعم .

— لم تذكر فى الاقرار مصدر هذه الثروة ، أآلت اليك عن ميراث ؟

— لا .

— هل دخلك من وظيفتك يسمح لك بتكوين مثل هذه الثروة ؟

— لا .

فاعتدل الرجل العابس وقال :

— فما مصدر ثروتك ؟

فقال الرجل الأنيق فى هدوء وثبات :

— زوجتى مانيكان .

فالتفت المحقق الى زميله ، وسادت برهة صمت وسرعان ما أحس الرجل العابس أن عليه أن يصدر قرارا فأملى على كاتب الجلسة :

— ستدعى الزوجة فى الجلسة القادمة .

وقام الرجل الأنيق وخرج مرفوع الرأس ثابت الخطو ، وسار

صوب المصعد والحاجب يسير أمامه مرة وخلفه مرة وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة .. ابتسامة يعرف الرجل الأنيق كل ما فيها من سر وعلانية ، حتى اذا ما بلغا المصعد ضغط الحاجب على الزر وهو ينحنى انحناءة خفيفة كلها ملق . فلما صعد المصعد وفتح الباب وضع الرجل الأنيق جنيها فى يد الحاجب ، فاذا بابتسامته تتسع ، واذا بانحناءته تزداد ، وقبل أن يغيب الرجل الأنيق فى المصعد لمح الحاجب الآخر وهو يرقبه وهو يضع الجنيه فى يد زميله ، ولمح التقطيب الذى علا وجهه فاستشعر راحة ففى المرة القادمة ستكون المقابلة أكثر ودا وترحيبا ..

ومرت الأيام وجاء اليوم الموعود ، وانفرج المصعد عن الرجل الأنيق الأشيب دميم الوجه وعن فتاة رائعة الحسن قد كشفت عن ساقين متناسقين وركبتين لا ضخامة فيهما ولا اعوجاج ، قد خرج منهما فخذان صورهما مبدع الجمال فأتقن خلقهما .. سارت يتقدمها نهدان شامخان يتطلعان الى الكون كله فى تحد وغرور واعتزاز .

وسبقها أريج عاطر نفاذ جعل كل الذين كانوا حول النضد المتواضع فى غرفة الانتظار يديرون رءوسهم الى الممر فى ترقب وانتظار . فاذا بالحاجبين يسيران ينظران مرة الى الخلف ومرة الى الأمام لكأنما كانا مكلفين بافساح الطريق أمام موكب رسمى خطير ، واذا بالرجل الدميم والى جواره تحفته الرائعة التى كشفت فى لمحة عن خائنة أعين الجميع وان كان أغلبهم ممن أحيلوا الى المعاش ، وراح كل من فى قاعة الانتظار يفسح مكانا الى جواره وهو فى قرارة نفسه يتمنى أن تجلس الحسناء بالقرب منه لحظات ليريح ذهنه المكدود ويسعد بلذة لم يعد له نصيب فيها الا متعة

النظر والخيال . وفجأة أصيب الجميع بخيبة أمل فقد سار القبح والجمال فى الممر الطويل الى باب اللجنة .. الذى خف أحد الحاجبين وفتحه وقد انحنى انحناءة ترحيب ، وانفرج فمه عن أسنانه البيضاء وقد غمرته راحة حقيقية ، فجمال المرأة كان يدغدغ الحواس ويملأ الوجدان بالأحلام .

ودخل الرجل وقــدم زوجته الى اللجنة وكانت من نفس العضوين اللذين استجوباه أول مرة ، فاذا بالرجل العابس يبش وينهض ويشير الى كرسى أمامه لا يفصل بينه وبينه الا المكتب الذى وضعت فوقه بعض الأضابير ، وأشار فى ود وقال فى صوت رقيق عذب كان وقعه غريبا فى أذن الزوج الأشيب :

ــ تفضلى .

فجلست الحسناء ووضعت ساقا فوق ساق ، فاذا بكاتب الجلسة الذى كاد يرى ما لا يرى يتغير لونه ويجف ريقه ويحس أنه فقد لسانه ، فتمنى فى قرارة نفسه الا يسأله أحد سؤالا يحتاج منه الى جواب ، فلو أن أحدا فعل فسيتهدج صوته وينكشف الغطاء عما يكابد من انفعالات .

وبعد أن سألها أحدهما عن اسمها وسنها ومكان ميــلادها المبارك قال :

ــ المهنة من فضلك .

فقالت وهي تميل بصدرها نحو المكتب ، فيبدو لعينى الرجلين الأخدود الرائع الذى حفر بين نهديها من منبعه الى مصبه كسر يكاد يبوح بمكنونه ويميط اللثام عن مصدر الثروة التى ذكرت فى الاقرار :

ــ مانيكان .

ولم يكن هناك ما يحتاج الى بيان والبرهان ماثل أمام الأعين ، ولكنها ارادت أن تزيد الموضوع وضوحا فقالت فى ألفة :

ــ عرضت أزيائى فى باريس ولندن ومدريد .

فقال أحد الرجلين فى خبث :

ــ ألم يكن للبلاد العربية نصيب ؟

فقالت وقد فطنت الى ما يهدف اليه وعلى شفتيها ابتســـامة آسرة :

ــ كانت أول جولاتى فيها .. الكويت .. قطر .. البحرين . كنت فى الشتاء الماضى فى دبى .

وقال الرجل الآخر :

ــ شكرا لك .

ونهضت ونهض الرجل الأشيب وسارا .. هو يتقدمه أنفه .. وهى يتقدمها ثديان يسملان عينى الحاسد ، فلما غابا عن المكان نظر أحد المحققين الى الآخر وقال :

ــ مائة وخمسون ألف جنيه ،

فقال زميله :

ــ تستاهل .

والتفت الى كاتب الجلسة وقال :

ــ يحفظ .

روما ١٩٧٣/٦/١٦

أرملة من فلسطين

اقتربت المضيفة من على — وكانت ترتدى ثوبا فى زرقة السماء الصافية فصل على هيئة شنوال — وهى تقوم بخدمة ركاب الطائرة ، فأشار لها اشارة خفيفة فخفت اليه مبتسمة تسأله عن حاجته .. فطلب فنجان قهوة سادة . وانطلقت المضيفة بقامتها الفارعة الى مطبخها الصغير الأنيق وثوبها يتثنى فى الفراغ بين الأكتاف والأرداف فيجسم مفاتنها الصارخة .

والتفت على عن يساره فوقعت عيناه على امرأة سمراء البشرة عسلية العينين يحدهما من أسفل هلال أسود ، ترتدى ثوبا كحليا من قطعتين ، وراحت تقرأ فى كتاب « البنات والصيف » ، وقد تركت المقعد الذى يفصل بينه وبين الممشى الضيق خاليا ، وجلست فى المقعد التالى له ، ووضعت المجلات الأخرى التى كانت تحملها فى الجيب المشقوق فى ظهر المقعد الذى كان أمامها .

وعادت المضيفة تحمل فنجان القهوة وفنجان شاى ، ووضعت القهوة أمام على ووضعت الشاى أمام السيدة السمراء التى كانت متشحة من الأسى تكسو وجهها ، وأخذ على يحتسى القهوة . ولمح من طرف عينه السيدة السمراء تخرج من حافظتها زجاجة صغيرة

تضع منها بعض قطرات فى حرص فى الشاى ، ثم تعيدها الى مكانها .

واسترخى على فى مقعده ، والتقت عيناه أكثر من مرة بعينى السيدة وقرأ فى نظراتها نداء أحس وقعة فى فؤاده ، كان نداء غريبا على مشاعره لم يعرف تأويله ، وظل حائرا مدة فى تفسيره ولم يخطر له على قلب انه نداء يشوبه ظل من الجنس ، فقد كان البريق المشع من عينيها يحرك الجوانب الطيبة فى نفسه .

وهبطت الطائرة فى مطار بنينه ، وأسرع على الى الاستراحة دون أن يلتفت الى السيدة ، كان الجو حارا والمكان مكتظا بالايطاليين والأمريكان ، والمراوح القليلة المتدلية من السقف عاجزة عن تجميف عرقه المتصبب فأخرج منديله وراح يمرره على وجهه ورقبته وقفاه .

وأقبل الجرسون الليبى ووقف أمامه فقال على :

ــ قهوة جدجد .

ومس الطلب أذنى شاب جالس بالقرب منه فالتفت اليه فى فضول ، وفطن على الى ما فى نظرات الشاب من تساؤل فابتسم له وقال :

ــ هذه أول مرة تزور فيها ليبيا ؟

فقال الشاب فى راحة :

ــ نعم ، ولن أمكث فيها طويلا .

ــ الا تشرب شيئا ؟

ــ شكرا .

ــ أعرف أن ليس معك نقود ليبية بعد ، لا تهتم بذلك فمعى نقود ليبية كثيرة ، اننى أعمل هنا من ثلاث سنوات .

وأشار على الى الجرسون أن تعال ، ولما جاء قال على للشاب :

— « أتشرب « بمبة » أم قهوة جدجد ؟ !

وبانت الدهشة في وجه الشاب فلم يدر ماذا يختار ، ولم يتركه على لحيرته بل قال :

— قهوة جدجد أى قهوة « قدقد » أى سكر « ع الريحة » ، فما رأيك ؟

— أهى مثل القهوة المصرية ؟

— لا انها قهوة بنها مجروش لن تعجبك .. أفضل لك « بمبة » .

وقبل أن يقول الشاب شيئا قال على للجرسون :

— بمبة ...

وذهب الجرسون وقال على للشاب :

— سنتناول قهوة مصرية فى بيتى ، اننى قاطن فى طرابلس بالقرب من فندق مهارى .

وظل وجه الشاب جامدا لم يزده على علما بشىء ، انه لم ير طرابلس من قبل ولا يدرى أين يقع ذلك الفندق الذى يتحدث عنه ، وقال الشاب :

— اشكر لك دعوتك .

وعاد الجرسون ووضع القهوة أمام على ووضع كوبا به سائل أبيض فى لون اللبن أمام الشاب ، ونظر الشاب الى الكوب مليا وقال :

— أهذه هى « البمبة » ؟ !

— ذقها انها لذيذة .

ورفع الشاب الكوب الى فمه ورشف منها فى حرص ثم قال :

— لذيذة ! يخيل الى اننى شربت هذا الشراب من قبل .

فابتسم على وقال :

ـــ انها سوبية .

ورشف على من الفنجان رشفة ، ورفع عينه الى الجرسون وقال وهو يهز رأسه استحسانا :

ـــ « باهى » .

واشرق وجه الجرسون بابتسامة عريضة وانصرف راضيا ، وقال الشاب :

ـــ ما معنى باهى ؟

ـــ معناها « حسن » ، وقد سمعت فى ليبيا أنها كلمة عربية ولكننى لا افهم فى اللغة شيئا .

فقال الشاب وهو يضحك :

ـــ « باهى » فعلت .

فقال على وهو مسرور :

ـــ لو كانت كلمة عربية لوجب أن تقول : « باهيا فعلت » .

وراح الجرسون يمر على الموائد وهو يعرج ، ولمح على أثار الألم فى وجهه فقال له لما دنا منه وهو يشير الى رجله :

ـــ ماذا بك ؟

فقال الجرسون وقد ارضاه أن يهتم غريب بأمره :

ـــ « كراعى » تؤلمنى ، ارتطمت بمقعد هذا الصباح .

واستأنف الجرسون عمله ، ولما ابتعد قال الشاب :

ـــ كراعه تؤلمه ؟ ! ما هى كراعه ؟

ـــ ساقه .

ـــ الساق اسمها كراع ؟ !

ـــ انها من الكارع .

ومر بعض الوقت ، واقبل الجرسون وقال :

ـــ ستتحرك الطائرة بعد خمس دقائق .

فقال على فى هدوء :

ـــ واتى .

وأخرج من جيبه حافظة نقوده ودفع ثمن ما شربه وما شربه الشاب ، وابتعد الجرسون وقال الشاب فى صوت خافت وهو يقدح زناد فكره محاولا أن يفهم معنى الكلمة :

ـــ راتى ! واتى ! ..

فقال له على وهو يبتسم :

ـــ لا تجهد نفسك ، انها ليست كلمة عربية ، انها كلمة بربرية ومعناها : أنا مستعد .

وضحك الشاب وقال :

ـــ وأنا « واتى » .

وجاء رجل يسعى ووقف فى وسط المكان وصفق ثم قال :

ـــ تفضلوا ..

ونهض المسافرون الى طرابلس ليستأنفوا رحلتهم ، وسار على والشاب الى الطائرة ، وقبل أن يصعدا فى الدرج التفت على الى الشاب وقال :

ـــ لا تنس أنك مدعو لشرب القهوة المصرية فى بيتى .

ـــ شكرا لك .

ـــ بعد ساعتين من الملل والفراغ سنحتسى القهوة المصرية معا ان شاء الله .

ـــ ان شاء الله .

وغابا فى الطائرة ، وانطلق على الى مقعده والتفت الى السيدة السمراء فألفاها قد اضطجعت فى مقعدها وسقط رأسها على

صدرها وغابت عن الوجود ، وجعلت تشهق وتزفر فى جهد وقد تفصد العرق من وجهها ، فخف اليها وجلس فى المقعد الخالى الى جوارها وتناول يدها وجعل يدلكها بيديه ، ثم رفع يده وراح يضرب خدها فى رفق لعلها تفيق دون جدوى ، فنادى المضيفة فجاءت بسرعة فقال لها فى لهفة :

ــ كولونيا من فضلك .

وهرولت المضيفة بجسمها الفارع وغابت قليلا فى مقصورتها وما لبثت أن عادت مسرعة تحمل زجاجة الكولونيا ، فبسط لها كفه فصبت فيها الكولونيا ، فأدناها من أنفها ثم راح يمسح بيده وجهها وجيدها .

وأضيئت اللافتة التى تأمر الركاب بربط أحزمتهم ، فلف حزام المقعد حول وسطه ومد يده ليلف حزامها ولكنه أحجم ، أحس كأن رجلا آخر يتلبسه يصيح به فى زجر ألا يفعل ، وانكمش أمام ذلك الصوت الناهى وشلت حركته ، وأشار الى المضيفة أن تربط لها حزامها ففعلت ثم أسرعت الى مقعد خال وجلست فيه ولفت الحزام حول وسطها .

وراحت الطائرة تدرج على الأرض ثم ترتفع فى الجو وهو يدلك يديها فى رفق ويربت على خدها فى حنان حتى فتحت عينيها ، ولما رأته ابتسمت له ابتسامة شاحبة ، وترجم البريق المتألق فى عينيها عن شكرها ورضاها .

ورفعت رأسها واعتدلت فى مقعدها قليلا ، فقال لها :

ــ كيف أنت الآن ؟

ــ أحسن .

وانتظم تنفسها وعادت الحمرة الى خديها ونبضت الحياة فى

عينيها ، وظل الهلالان الأسودان اللذان يحدان عينيها من أسفل على حالهما ، ومال نحوها وقال لها :

ــ أهذه أول مرة يحدث لك فيها هذا الذى حدث ؟

فقالت فى نبرات يشوبها أسى :

ــ حدث لى ذلك مرة قبل اليوم ، وقد عرضت نفسى على الطبيب فقال لى ان دورة الدم غير منتظمة ، ولكننى فهمت أن قلبى ضعيف .

ــ ومن أين جاء هذا الفهم ؟

ــ وصف لى أن أتناول أربع نقط من الكورامين ثلاث مرات فى اليوم ، فاذا لم يكن قلبى ضعيفا فلماذا وصف لى الكورامين ؟

ولم يكن يفقه شيئا فى الطب ولكنه أحس رغبة فى أن يدخل الطمأنينة على نفسها الواجفة فقال فى حماسة :

ــ وصفت لك الكورامين ليعاون على انتظام دورة الدم ، لقد وصف لى الطبيب مرة استعمال الكورامين مع أن قلبى سليم ، انه علاج عارض .

وصمت وراح يسأل نفسه : لماذا كذب ؟ وما الذى دفعه الى هذا الكذب ؟ وقبل أن يسترسل فى حساب نفسه قالت له :

ــ أظن انك رأيتنى وأنا أضع الكورامين فى الشاى ؟

ــ نعم .

والتقت عيناها بعينيه . كانت نظراتها اليه تختلف عن النظرات التى حار فى أمرها ، انها نظرات راضية تدعوه الى الاسترسال فى الحديث الذى ينزل السكينة على قلبها ، بينا كانت نظراتها التى غمت عليه تتوسل اليه أن يخف اليها ليحميها من الغيبوبة التى كانت تزحف لتحجبها عن وعيها .

عرفت على شفتيها بسمة وقالت :

ـــ أحسست أنني سأغيب عن الوجود قبل أن تهبط الطائرة فتمالكت ، حتى اذا ما استقرت الطائرة على أرض المطار أسرعت الى غرفة المضيفات وتمددت فى سرير الأيسر للدم الصعود الى رأسى .. وقد أحسست بالراحة فعلا ولكن ما ان عدت الى الطائرة حتى شعرت بالاغماء يعاودنى .

ـــ لعلك أجهدت نفسك فى الأيام الأخيرة .

ـــ عدت بالطائرة من الاسكندرية الى القاهرة ، ومن القاهرة ركبت هذه الطائرة .

فقال على فى دهش :

ـــ أنت مصرية ؟

فهزت رأسها أن نعم ، فعاد على يقول فى انكار :

ـــ ان من يراك يحسبك سورية .

ـــ حقا ؟ !

ـــ أنت سورية على الرغم من سمرة بشرتك ، التقاطيع ... الأنف .. الدم .. حتى لهجتك .

فقالت وقد أشرق وجهها بابتسامة حلوة :

ـــ ابى مصرى وأمى فلسطينية .

ـــ وأين ولدت ؟

ـــ فى القدس .

ـــ وأين ابوك الآن ؟

فقالت فى بساطة :

ـــ مات ولحقت به أمى .

فقال على مواسيا :

ـــ هذا حالنا ، وأنا أيضا مات أبى ولحقت به أمى .

فقالت فى مرارة :

ـــ ان كان أبوك وأمك قد ماتا فقد بقى لك وطنك ، أما أنا فلا وطن لى .

فقال على وقد اتسعت عيناه :

ـــ ألم تقولى ان أباك مصرى ؟

ـــ ولكننى ولدت فى القدس ، وعشت فيها وتفتح شبابى عليها ، اننى فلسطينية ، ولقد عشت النكبة وقت مرارتها وتجرعت كأس التشريد ، اننى مذ فررت من وجه الطغيان أهيم على وجهى تائهة فى هذه الدنيا الواسعة ، وكلما مرت الأيام ازداد احساسى بوحدتى بشاعة ، وأتصور أحيانا أن العالم كله يمقتنى .. هدفه أن يسحقنى ، ويا ليته يقضى على دفعة واحدة لأستريح ، ولكنه يتفنن فى تعذيبى . اننى لا أظن أن الزمن قد عذب أحدا كما عذبنى .

فقال لها على فى اشفاق :

ـــ أوهامك تصور لك ذلك ، أنت مريضة بالوهم .

فابتسمت فى استخفاف وقالت :

ـــ يا ليت !! .

ـــ الكورامين .. ضعف القلب .. قسوة الحياة .. كلها أشياء من خلقك أنت .

فقالت وقد غامت صفحة وجهها بسحابة من الأسى :

ـــ لولا أننى لا أريد أن أثقل عليك لقصصت عليك قصتى .

فقال على فى صدق :

ـــ انه لما يشرح صدرى أن أصغى اليك .

ـــ ولكن قصتى لا تشرح الصدر .

ونظر اليها طويلا دون أن ينبس بكلمة ، وشرد مفكرا .. كان يبحث عن الألفاظ التى تترجم عن الاحساس الجياش الذى يملأ جوانحه ، وضاق بالصمت الذى ساد بينهما فقال :

ـــ قد تستريح النفس الى حديث فياض بالأسى وتنفر من حديث زاخر بالمرح ، العبرة فى أن يتفتح القلب للقلب ، وقلبى الآن متفتح لكل ما يخرج من بين شفتيك .

وأسبلت جفنيها على عينيها .. بهرها ذلك البريق المتألق فى عينيه . وظل يرمقها فاستشعر ميلا اليها ، انها قريبة اليه .. أقرب من ذلك الفراغ الذى يفصل بين مقعديهما ، وقال :

ـــ قولى كلى آذان .

والتفتت اليه بكل جسمها ، وراحت تقص قصتها فى صـــوت مشوب بأسى ينفذ الى القلب ويحرك مواجع النفس ، قالت :

ـــ كان بيتنا فى القدس ، وكانت مدرستى فى شارع الملك داود ، فكنت أذرع الشارع أنا وصويحباتى فى الصبح وفى العصر ، ومرت الأيام والشهور والسنون زاخرة بالغبطة والآمال ، يزيد جمالها ما تضفيه عليها قلوبنا الشابة الخلية النابضة بأروع مشاعر الحياة .

وجاء اليهود الأفاكون الى الوطن الحبيب من مشـــارق الأرض ومغاربها فى حماية دولة الانتداب ، وبعد أن كانوا أذلة طغوا وبغوا واشتدت مطالبتهم بتنفيذ وعد بلفور المشئوم ، وقمنا للدفاع عن كياننا ولكن الانجليز كانوا يضربون على أيدينا بشدة ويتركون الأفاكين يرتكبون الجرائم فى حمايتهم .

واعلن الانجليز انسحابهم من فلسطين بعد أن أحكموا تدبير مؤامرتهم مع اليهود ، فراحت فلسطين ترقص على فوهة بركان ، وكثرت الاشتباكات والاغتيالات .

وفى ذات صباح كنت أجتاز شارع الملك داود وكنت قد بلغت التاسعة عشرة ، واذا بشابين يهوديين يعترضان سبيلى وقال أحدهما : « نعلمين أن فتاة يهودية قتلت أمس ، قتلها العرب » ، وارتجفت وتحركت لأفر منوجهيهما واذا بصوت آمر يقول : « قفى ، ستموتين الآن كما ماتت أختنا بالأمس » وأخرج مسدسه وصوبه الى وهو يقول : « صلى » ، ولم أفعل شيئا ، تملكنى رعب شديد ، وأحسست أن رأسى فراغ ، تعطل فكرى وان كانت مشاعر الخوف تكاد تقضى على .

وسمعت صوت انطلاق رصاصة وانهرت على الأرض كما ينهار الجدار وقر فى وجدانى أننى مت ، وغبت عن الوجود . وتقضت لحظات وأنا لا أحس شيئا ، وبدأت المشاعر تعاود نبضها فى جنباتى ، وفتحت عينى وأنا خائفة فرأيت أشباحا تتراقص وأخذت الصور تتضح لعينى شيئا فشيئا ووعيى يعود الى ، ففطنت الى أننى مستلقية على الأرض وأن رأسى على ذراع رجل ، وأن الناس التفوا حولى .

ونهضت أتحسس مكان الرصاصة فى جسمى ، وكم كانت دهشتى عندما اكتشفت أنها لم تصبنى . وتطوع كثيرون لقص ما حدث على مسامعى ، وقد فهمت من رواياتهم أن دروية بريطانية ظهرت فى الطريق فى الوقت الذى صوب فيه الجبان مسدسه الى ، وأنه ارتبك فطاشت رصاصته ومرت بجوارى وأن اليهوديين أسرعا الى سيارة كانت فى انتظارهما وفرا هاربين .

وصمتت قليلا ثم قالت :

— ليتنى قتلت فى ذلك الصباح واسترحت من العذاب الذى كان فى انتظارى . بعد تلك الحادثة نسف فندق الملك داود وانسحب الانجليز بعد أن تركوا بعض أسلحتهم لليهود ، وبدأت المذابح

ودخلت الجيوش العربية لانقاذ فلسطين ، وكانت خيانات الملوك فسقطت القدس الجديدة فى أيدى الصهيونيين ، وكان علينا أن نترك الدار التى نشأت فيها ونفر من الموت الذى يتعقبنا ، وهمنا على وجوهنا مرعوبين وأصبحنا لاجئين بعد أن كان لنا بيت وأهل ووطن .

وأسبلت جفنيها على عينيها لتخفى الحزن الدفين الذى تحرك واحتشد فى مقلتيها ، وقالت فى مرارة :

ــ وفجأة وجدنا أنفسنا فرعا بلا أصول ، عضوا أبتر انفصل عن الجسد . وكنا على الرغم من الشقاء الذى نتجرعه أسعد حالا من اخواننا ، كانت جنسية أبى جواز المرور لنا فانطلقنا الى مصر وحططنا رحالنا فى الاسماعيلية .

وبدأ أبى من جديد .. وانها لقسوة أن تضطر الظروف من كان يعيش فى بحبوحة مثله أن يبدأ من جديد ، واتضح أن الأمر ليس فى مثل السهولة التى صورها لنا أول ما هبطنا الاسماعيلية .. وفطنت أن الواجب علىّ أن أعمل لأساعد أبى وأمى ، ووجدت عملا فى مدرسة . ومنذ ذلك الوقت أصبحت مدرسة تعلم الفتيات الحساب .

وذقت طعم الاستقرار فى الاسماعيلية ، ولكن كان قلبى متعلقا ببيتى الذى كان هناك يرزح تحت ذل احتلال الصهيونيين .

وعرفته فى المدرسة ، كان مدرسا للغة الانجليزية وكان وديعا خجولا .. اذا تحدث الىّ يطرق الى الأرض ويقضم أظافره بأسنانه كالأطفال ، وقد مست وداعته وترا حساسا فى نفسى وخفق قلبى بحبه ، وقد عجبت لذلك الاحساس الجميل الذى تدسس الى ظلام روحى فى غفلة منى .

وأفزعنى أن قلبى قد خفق بالحب على الرغم من المحنة التى نعيش فيها . حاولت أن أقهر ذلك الشعور وأن أقبره ولكن الحياة أقوى من أتراحنا ، فطفا حبى فوق أحزانى وتندى فى لفتاتى وحركاتى ونظراتى ، حتى ان أمى فطنت الى التبدل الذى اعترانى وسألتنى فى حنان عن حياتى وعن شعورى نحو زملائى ، فأفضيت اليها وأنا مطرقة أكاد أذوب خجلا بسر قلبى ، ونظرت اليها من بين أهدابى المسبلة لأقرأ الغضب فى وجهها ولكنها كانت متبسطة الأسارير تتألق نظراتها بالغبطة ؛ وطفت سعادتها حتى انها ضمتنى الى صدرها وقبلتنى .

وشد أزرى رضا أمى فأشرقت نفسى ، وأقبلت عليه أحادثه وأنا نابضة بالحب والحنان ، فاستراح الى" وحلت عقدة لسانه وكشف عن مكنون صدره ، قال انه يحبنى وأنه لا يستطيع العيش بدونى ، وأنه يريد أن يتخذنى زوجة ويود أن يسمع رأيى .

وغردت بلابل نفسى ، وتفجرت ينابيع سعادتى ، وصفت الحياة فى عينى وطفرت دموع الفرح من مقلتى ، ولم تتحرك شفتاى بكلمة وان نطقت كل ملامحى وخلجات ذاتى ترحب بذلك العرض الكريم ، وأحس السعادة التى غمرتنى ، وهنأ قلبه بحديث قلبى فقال فى صوت خافت زاخر بالغبطة : شكرا .. شكرا .

وتم زواجنا ، ومرت الأيام وأنا هائمة فى دنيا كلها غبطة .. وفجأة استيقظت من الحلم الجميل على موت أبى ، حزنت وبكيت ولكن زوجى مسح بيده الحنون دموعى ، وبرئت روحى من أحزانها بما سكبه فيها من عطف وحنان .. واستأنفت حياتى أعب كئوس سعادتى . وتصرمت سنون وماتت أمى فنكأ موتها جرح نفسى وعادت ذكرتنا تتمثل لعينى ، صرت أراها فى يقظتى وفى نومى ،

ويا طالما رأيت فى أحلامى الشابين الصهيونيين وهما يستوقفانى فى شارع الملك داود ويصوب أحدهما الى مسدسه فأهب من نومى مفزوعة وأنا أصرخ فى رعب وهلع .

كان عزائى يوم موت أبى أنه دفن فى أرض وطنه ، أما أن تموت أمى مشردة دون أن تلفظ آخر أنفاسها فى القدس فذلك الذى كان يقطع نياط قلبى . وأصبحت حليفة أحزانى ، وبذل زوجى ما فى طوقه ليرفه عنى ولكن جرح فؤادى كان أعمق من أن يلتئم ، فيحد استسلامى لاحساساتى السوداء .

آه لو كنت أدرى ما يخبئه لى قدرى لقاومت مشاعرى وغمرته بكل ما تزخر به نفسى من حنان ، ولكن لم يخطر لى على قلب أن الزمن يدخر لى أسوأ ما فى جعبته من مفاجآت .

كانت اسرائيل سبب نكبتى الأولى وكانت هى سبب فجيعتى الثانية ، وانني أعيش الآن على أمل واحد أن أرى زوال تلك الباغية التى جرعتنى أمر كئوس الحياة ، وأن يتلوى طغاتها من الألم على ما اقترفوا من آثام .

نسجت اسرائيل خيوط المؤامرة على مصر ، وتم اتفاق الأوغاد على الغدر بها . وتحركت اسرائيل على الحدود ، وحاول الانجليز والفرنسيون أن يطعنونا من الخلف ، وشنت الطائرات علينا الغارات . ولا أدعى أننى قابلت تلك الغارات وأنا رابطة الجأش ، كنت أرتجف هلعا وأصيح محمومة أستنزل اللعنات على الغادرين ، فقد كنت أخشى أن ينزل بوطن أبى ما نزل بوطن أمى ، وأن نهيم على وجوهنا جميعا مشردين .

كان اذا ما انتشر أزيز الطائرات يهرع الى ويضمنى الى صدره فى حنان ليذهب عنى روعى ، ولكننى كنت أنتفض فى أحضانه

وأنا أسب وألعن وأصيح ، وهو يحاول أن ينفث فى الاطمئنان بكلماته التى يسكبها فى .

وفى الليلة المشئومة استيقظت من نومى مفزوعة على أصوات القنابل الهابطة من السماء ، ففتحت باب غرفتى وانطلقت أعدو فى الطريق دون وعى لا ألوى على شىء ، ولا أعرف أين أتوجه ، وهب من نومه وراح يعدو خلفى وينادينى والقنابل تتساقط حولنا ، وصكت أذنى صرخة مرعوبة ثم صوت انهيار ، وعلى الرغم من الهلع الذى استبد بى ، أحس قلبى ما حدث وفى مثل لمح البصر تمثلت لذهنى الفاجعة ، فانقشع خوفى فجأة ووقفت والتفت خلفى فرأيته يتلوى من الألم ، فعدت اليه ونظرت ، فاذا بالدماء تتفجر من جراحه فارتميت فوقه أحاول أن أسد بيدى ينابيع الدماء المتدفقة دوى جدوى ، وجن جنونى فجعلت أصيح وأنادى وأتلفت وضاعت صيحاتى بين هزيم القنابل المدوية .

وسكن كل شىء ، حتى قد سكن عن الحركة ، وأخفيت وجهى فى صدره الغارق فى الدماء وأنا أبكى وأنتحب واختلطت دموعى بدمائه وتمنيت فى تلك اللحظة لو أن الطائرات تعود وتصوب الى كل ما تحمل لأذهب معه ، فقد كان آخر خيط يربطنى بدنيا الضوارى التى لا يزال يحكمها قانون الغابة .

ولم أطق العيش فى مصر بعده ، فرحت أسعى للخروج منها ، وواتتنى الفرص فوجدت عملا فى ليبيا ، فحملت أحزانى على ظهرى وانطلقت اليها .

وصمتت وظل على يرقبها وقد نبتت مشاعر جديدة فى جوفه ، كان يستشعر عطفا نحوها ويحس أنها صارت قريبة الى قلبه حبيبة الى نفسه ، وأراد أن يظل حبل الحديث موصولا بينهما فقال :"

ـــ وماذا تعملين فى ليبيا ؟

فقالت دون أن تنظر اليه :

ـــ ناظرة مدرسة ابتدائية .

وقال وقد تهدج صوته :

ـــ أتعيشين فى طرابلس وحدك ؟

ـــ نعم ، وبيتى فى شارع القاهرة . ولم أسكن فى هذا الشارع عفوا فقد صممت على أن أقطن فيه ليذكرنى دواما بمأساة حياتى .

ـــ اذا كنت ترغبين فى أن تظل مأساة حياتك حية فى نفسك ففيم كان هربك من مصر ؟!

ـــ اننا نهرب دواما من مسرح الفاجعة ، ولا مفر من ذكراها .

ـــ ولماذا لا تحاولين أن تنسى ؟

ولم تدعه يكمل حديثه ، وقالت فى مرارة :

ـــ هيهات أن ينسى المرء عشه السعيد الذى تقوض .

ـــ لا تزالين شابة ، لماذا لا تحاولين أن تبنى عشا سعيدا آخر !.

فابتسمت ابتسامة باهتة وقالت :

ـــ ان كان شعرى لا يزال أسود فان الشيب قد نبت فى أغوار نفسى وجلل وجدانى .

فقال خافق القلب وقد ازداد منها قربا :

ـــ قطرات من الحب كفـ[illegible] سيدة بان تعيد سواد الشعر الى وجدانك .

فقالت وهى تبتسم فى استخفاف :

ـــ سيكون سواده كسواد الصبغة ما يلبث أن يذهب .

ـــ انك لم تشيخى ، ولكن نفسك قد جرحت والأيام هى البلسم الشافى الجروح .

فلوت شفتها وقالت فى مرارة :

ـ لو كان هذا حقا فسيبرا جرح قلبى بعد أن يمتد اشتعال الشيب من أعماقى الى رأسى .

فقال فى انفعال :

ـ تتحدثين كأنما الشباب والجمال المادى كل شىء ، الحب الصحيح هو حب الروح ، وما أكثر الذين سيعشقون روحك لو فتحت لهم قلبك وخرجت من قوقعة ذاتك .

فقالت فى زراية :

ـ شكرا .

ولم تفتر حماسته وقال :

ـ انت وحيدة فى طرابلس وأنا وحيد ، أتسمحين لى بزيارتك ؟

فقالت فى ترحيب :

ـ ليتك تفعل :

ـ قلت ان منزلك فى شارع القاهرة ..

ـ أمام محل منصور .

وابتسم وقال :

ـ تحدثنا طويلا دون أن يقدم أحدنا نفسه للآخر ، أنا على طه محاسب قانونى ، لى مكتب فى طرابلس وآخر فى بنى غازى وأنا دائم التنقل بينهما .

فقالت وهى تبتسم :

ـ تشرفنا .

وصمتت ولم تذكر له اسمها ولم يكن فى حاجة الى معرفته ، فهو يحس فى تلك اللحظة أن روحها انسابت بين جوانحه فأيقظت أرق مشاعره الهاجعة . وأضيئت اللافتة التى تأمر الركاب بربط أحزمتهم فلف كل منهما ذراعه حول وسطه ومال نحوها بكل جسمه

وأدنى منها أذنه ليتمكن من سماع حديثها ، ولكن كلماتها ضاعت في هدير مراوح الطائرة التي علا ضجيجها .

واستقرت الطائرة على الأرض فالتفت اليها وقال :

ــ حمدا لله على السلامة .

ومال وجذب حقيبته الصغيرة من تحت الكرسي الذي أمامه ثم نهض وأفسح لها طريقا ، ومدت يدها لتحمل حقيبتها المنتفخة ولاح في وجهها أنها قاست من حملها ، فخف اليها وحمل الحقيبة عنها وهي تقول :

ــ عفوا . . عفوا .

فقال وهو يبتسم :

ــ باهي . . باهي .

وسارت وهو خلفها حتى اذا هبطا الى أرض المطار انطلقا جنبا الى جنب وهما يتحدثان ، وأحس على يدا على كتفه فالتفت خلفه فاذا بالشاب الذي وعده بفنجان قهوة مصرية يشربه في بيته يبتسم له . كان على قد نسيه في غمرة نشوته بالحديث الذي كانت تسكبه في أذنيه . انه كان صادق الشعور سليم القلب ساعة أن دعاه مما دار في خلده أن يطرأ على حياته كل ذلك التغيير في ساعتين حسب أنه سيقضيهما في تثاؤب وملل ، أما الآن فقد زحف الضيق الى صدره وان لم تبد على وجهه آثاره .

والتصق الشاب به كأنما يحتمي به فما كان يدري الى أين يذهب وماذا يفعل ، وانتهت الاجراءات وخرجو الى سيارة الشركة التي كانت تنتظرهم ، وجلست وأسرع بالجلوس الى جوارها مسافر آخر ، فأخذ على يرمقه في شزر ، ثم اتخذ مكانه خلفها وهرع الشاب اليه وجلس الى جواره .

وانطلقت السيارة الى المدينة ، وقال الشاب لعلى وهو يبتسم :

— عزمت على أن أنزل فى الفندق القريب من بيتكم ، لقد ذكرت لى اسمه ولكننى نسيته ، ما اسمه ؟

— المهارى .

وقال الشاب دون أن يفطن الى أن عليا يريد ان يظل فى رفقة نفسه ، يحلل مشاعره التى تفجرت بغزارة فى أعماقه بعد حديث السيدة الذى مس أوتارا مرهفة الحس فى وجدانه :

— وهل « المهارى » كلمة عربية ؟ .

فقال على فى نبرات تنم عن رجائه له أن يسكت والا يعاود الحديث :

— انها كلمة ايطالية ومعناها « الهجين » .

وقال الشاب ليظل حبل الحديث موصولا بينهما :

— قطعنا مسافة طويلة ولم نبلغ بعد المدينة ، فكم كيلومترا يبعد المطار عن طرابلس ؟

ولم يحر على جوابا ، ونظر اليه الشاب فألفاه شارد اللب ، فاحترم صمته مرغما .

وبلغت السيارة المدينة وهبط منها ركابها ، وسر عليا أنها وقفت تنتظر هبوطه فخف اليها يودعها وهو خافق القلب يشع من عينيه بريق أخاذ ، ومدت له يدها مصافحة فأسرع واحتوى يدها فى يده وضغط عليها فى خفة لتسرى المشاعر المواره المربدة بين جنباته اليها ، وقال فى رقة :

— مع السلامة .

وقالت فى هدوء :

— منتظرة زيارتك .

وتدفق الدم حاراً الى وجهه وقال فى صوت متهدج :

ـــ ان شاء الله .

وسارت وهو يرمقها ونشوة تدغدغ كل حواسه ، واحساس بالرغبة فى أن يعدو خلفها ليكون الى جوارها دواما يملأ نفسه .

وغابت عن عينيه ، ودار على عقبيه فألفى الشاب قد وضع حقيبته بين رجليه ووقف ينتظره ، فابتسم له وقال :

ـــ تعال .

وركبا عربة حنطور تظللها مظلة كبيرة مخططة من مظلات الشواطىء ، وراح الشاب يملأ عينيه بالمحال والمبانى والفادين والرائحين ، وسارت العربة الى الكورنيش ، فصاح الشاب فى فرح :

ـــ لكأننا فى الاسكندرية ، فى الميناء الشرقى على التحديد .

وظل الشاب فى تلفته دون أن ينبس على بكلمة . . كان غارقا فى بحار من الأفكار . ووقفت العربة أمام مبنى ابيض له مظلة أقيمت على أعمدة مستديرة رفيعة اصطفت تحتها بعض سيارات ، وفوق المدخل شيدت بناية مثمنة الشكل فى قاعدتها نوافذ ، وفى منتصف المثمن قامت أسطوانة تنتهى بنصف دائرة ، وكتب فى أعلاه بالعربية والايطالية « فندق المهارى » ، وهبط الشاب وهو يحمل حقيبتين ولحق به على ، وأراد الشاب أن يقول شيئا ليذهب الوحشة التى بدأ يحسها فقال :

ـــ عربة جميلة .

فقال له على :

ـــ انها تسمى هنا « كاروسة » .

وذهب على وحجز له غرفة ، وانتظره فى الردهة حتى ينتهى من وضع حوائجه ويعود اليه ، وأخذ على يذرع المكان وهو برم

بالانتظار . انه قد عرض على الشاب أن يصحبه الى بيته ليشرب فنجانا من القهوة لأن حياته فى طرابلس كانت فارغة وكان فى حاجة الى من يؤنس وحشته ، أما بعد أن قابلها فقد ذهبت عنه وحدته وملأت عليه حياته .

وعاد الشاب وصحبه على الى بيته ، ورحب به وقدم اليه قهوة مصرية ، وراح الشاب يتحدث وهو غائب عنه . وفطن الشاب الى شروده فاستأذن فى الانصراف متعللا بتعبه وحاجتـــه الى الراحة .

وبقى على فى البيت مع طيفها يتمثل الحديث الدائر بينه وبينها ورن فى سريرته صوته وهو يقول لها : « لماذا لا تحاولين أن تبنى عشا سعيدا آخر ؟ » فضرب كفه بقبضته وقال : « نعم ، لماذا لا تحاول أن تبنى عشا سعيدا آخر ؟ فلتحاول وسأعاونها على تشييده ، اننى لم أفكر من قبل فى أن أتزوج ولكننى الآن أتمنى من كل قلبى أن تقبلنى زوجا ، ان روحى قد أحبت روحها .. عشقتها .. هامت بها .. وجدت أخيرا ما كانت نفسى تشتهيه وتهفو اليه » .

وارتمى فى فراشه وسبح فى عالم من الرؤى العذاب ، وتردد فى جوفه صوتها وهى تقول : « ان كان شعرى لا يزال أسود ، فان الشيب قد نبت فى أغوار نفسى وجلل وجدانى » وهب من رقاده ثائرا وهو يقول : « لا ، لا ، لا ، أنها واهمة ، وهى دائما تضخم أوهامها ، لقد أصبت كبد الحقيقة عندما قلت له : انها مريضة بالوهم . سأشفيها من وهمها هذا ، ستذوب ثلوج مخاوفها تحت شمس حبى ، سأغذيها بالحنان حتى أقوى روحها وأعيد اليها ثقتها بنفسها التى زعزعتها الأحداث » .

وعاد مرة أخرى الى فراشه وتمدد فيه وهو يغمغم : « اننى

أحبها .. أجل أحبها على الرغم من أن عمر معرفتى بها لا يزيد على ساعتين ، ان مشاعرى لا يمكن أن تخدعنى وانا فى مثل سنى ، فقد تجاوزت مرحلة الطيش والاندفاع » .

وتقلب فى فراشه وراح يفكر فى الأرملة التى ملكت كل حواسه ، وقر رأيه على أن يذهب اليها فى الغد يشرح لها فى بساطة حقيقة مشاعره ويطلب منها الزواج . وعلى الرغم من أنه قد استراح الى ذلك القرار فقد جافاه النوم ، واستمر طوال الليل يجتر أحداث الساعتين اللتين أمضاهما معها وهو مفعم بالغبطة والانشراح .

وتصرم الليل وأقبل النهار ، فراح يتأهب للذهاب اليها خافق القلب يحس كأنما قد خلق خلقا آخر ، ولما أتم تأنقه هبط فى الدرج مسرعا ، وهرع الى سيارته وانطلق بها الى شارع القاهرة .

ووقف أمام محل منصور وقد اشتد وجيب قلبه ومشى الاضطراب فى أوصاله ، ونظر فى قلق الى البيت المواجه للمحل فألفاه من طبقة واحدة تعلو الدكاكين ، فهبط من سيارته ومرر لسانه على شفتيه ليذهب عنهما الجفاف الذى بدا يحسه . ووقف برهة يسترد انفاسه المبهورة ويجمع شتات أمره ثم سار الى البيت لا يلوى على شىء ولا يلتفت خلفه .

وطرق باب الشقة طرقة خفيفة كانت أخف فى أذنيه من طرقات مشاعره الصاخبة المدوية ، ومرت لحظات ثم فتح الباب عنها .. كانت ترتدى ثوبا منزليا بسيطا وشعرها مسترسل على كتفيها ، ولما رأته تألقت عيناها ببريق خاطف وانفرجت شفتاها عن بسمة عذبة وقالت :

ــ أهلا وسهلا .. تفضل .

وقادته الى غرفة الاستقبال ، وكان اثاثها بسيطا ولكنها كانت منسقة تنسيقا جميلا ينم عن حسن ذوقها ، وجلس وتحركت لتبدل ثوبها وهو تقول :

ـ لحظة واحدة من فضلك .

فقال وهو يزحف حتى حافة المقعد :

ـ أعرف أننى جئت فى وقت غير مناسب ، ولكن عذرى أننى لم أستطع الصبر على ما أريد أن أفضى به اليك .

وأشار الى مقعد أمامه وقال :

ـ اجلسى أرجوك ، ولن تستغرق زيارتى الا دقائق قليلة .

وقرأت فى عينيه التوسل فجلست صامتة ، ونظر طويلا الى الهلالين الأسودين اللذين يحدان عينيها من أسفل ثم قال :

ـ لم أفكر فى شىء مذ افترقنا حتى الآن الا فيك .

وأحس أنها جفلت وان جاهدت لتخفى انفعالها ، فقال فى هدوء وإن تهدج صوته :

ـ أرجو أن تسمحى لى أن أعبر عن نفسى فى صدق وبساطة ، اننى لم أذق طعم النوم البارحة ، أمضيت ليلى أفكر فى كل كلمة خرجت من بين شفتيك وأحلل عواطفى فاهتديت الى أننى قد وجدت ضالتى ، لقد كنت عازفا عن الزواج أما بعد أن قابلتك فانى أشتهيه وأرجو أن تقبلينى زوجا .

وسرت فى جسمها قشعريرة وقالت فى صوت مضطرب :

ـ ان مأساتى قد مست مكامن العطف منك ، انك تعطف علىّ

فقال فى حماسة :

ـ أبدا ، اننى قد أحببتك . أحببتك حبا صادقا ، وانه لما يشرفنى أن تكونى لى زوجة .

فقالت فى دهش :

ـ أتعرض الزواج على سيدة لا تعرف حتى اسمها ؟ !

فقال وهو يدنو منها :

ـ وما يهمنى من اسمها اذا كانت روحى عشقت روحها ؟ اذا كنت قد أحسست أننى لها وأنها لى ؟ أنا واثق أننا سنسعد معا .. لا تستسلمى ليأسك ، حاولى أن تعاودى بنا عش جديد وأن تملئيه حبا وسعادة . أنت زاخرة بأجمل ما فى الوجود من مشاعر .. اسعدى بها .. حرام عليك أن تحطمى هناءك وهنائى .

فقالت له فى انفعال :

ـ آسفة ان كنت لم أقدم لك نفسى بالأمس ، أنا جاكلين توفيق ، أنا مسيحية وأنت مسلم .

ـ حتى هذا لا يحول بيننا ، أنت مؤمنة بالله وأنا مؤمن بالله ، الا يكفى هذا ؟ أجل يكفى أننا مؤمنان وأن روحينا قد ائتلفتا . أقسم لك بحبى أن روحى لم تنجذب أبدا الى روح كما انجذبت اليك . اقبلى ما أعرضه عليك أرجوك من أجلى ومن أجلك .

فقالت وقد أطرقت وأسبلت جفنيها على عينيها :

ـ آسفة لن أتزوج أبدا ، سأظل ما حييت أرملة من فلسطين .

فقال فى انفعال :

ـ ان كل ما مر بك وهم من الأوهام ، أضغاث أحلام .. أما الحقيقة فهى أننى لك وأنك لى ، لقد وجدنا نفسينا فلماذا نضيعهما .

ورأى الدموع تنهمر على خديها فعقد لسانه .. لم يكن يدرى أهى دموع الفرح ؟ أهى دموع الأسى ؟ أجرح شعورها لما قال لها ان كل ما مر بها وهم من الأوهام ؟ وجعل يرمقها فى قلق فألفاها تمد له يدها وتقول :

— ان كنت تبغى صداقتى فعدنى ألا تعود أبدا الى هــذا الموضوع .

وظل ينظر الى اليد الممدودة اليه وهو حائر .. أيرفضها ؟ أيقبل شرطها الجائر ثمنا لصداقتها ؟ انه أصبح لا يستطيع العيش بدونها .. يكفيه أن يكون بالقرب منها ، وألفى يده تمتد الى يدها وتصافحها ، ولم تكتف بذلك بل قالت :

— قل أقسم بالاله الذى أومن به ألا أعود أبدا الى هــذا الموضوع .

فقال فى صوت خافت زاخر بالأسى :

— أقسم بالله العظيم ألا أعود أبدا الى هذا الموضوع .

وأطرق ساهما ثم نهض مستأذنا ، فقالت له وهى تودعه :

— تفضل فى أى وقت ، بيتى مفتوح لك .

وهبط الى الشارع ولم يتجه الى سيارته ، فقد راح يضرب فى الطرقات على غير هدى وهو ساخط على نفسه الأنه قبل أن يقسم ذلك القسم الغليظ بعد أن وجد من عشقتها روحه وخفق بحبها قلبه ، ولم ينقشع غضبه الا بعد أن راح يؤكد لنفسه بأنه سيحنث فى قسمه لو قبلته يوما زوجا لها ، وهو يأمل كثيرا فيما ستجرى به المقادير ، فلم يكن لقاؤهما عبثا .. وانها لقسوة أن يكتب عليه أن تصبح ليلة عرسه مأتم حبه .

كشك الموسيقى

رحت أضرب فى الطريق الهادىء وحدى وانا أحتمى بالجدران من لسع الشمس . كان اليوم من أيام يونية القائظة ، وكنت فى طريقى لأول مرة الى منزل صديقى حمدى الذى دعانى للغداء عنده ، وهو صديق تعرفت به أخيرا ولكن سرعان ما توطدت بيننا أواصر الصداقة .

ووصلت الى الفيلا الأنيقة القابعة فى نهاية الطريق وقد أولت ظهرها صحراء مصر الجديدة ، فوقفت أجفف عرقى وأصلح هندامى ، ثم مددت يدى وضغطت على الجرس ، فما هى الا لحظات حتى أقبل خادم نوبى فى ثياب بيض ، وقادنى الى غرفة نسقت تنسيقا بديعا وقد زينت بأوحات جميلة ، فغصت فى مقعد وثير وبدأت عيناى تجولان فى الغرفة . ولكن بلغ أذنى وقع أقدام تقترب ، فالتفت صوب الباب فاذا بحمدى بقامته الطويلة ووجهه الأسمر وشعره الأسود اللامع يقبل علىّ ويرحب بى وقد فتح ذراعيه :

ـ أهلا . . أهلا . .

وتصافحنا ، وما كدت أجلس حتى لمحت زوجته مقبلة ، وأخذت المسافة التى تفصل بيننا تقصر ، وأخذت ملامحها تتضح لى ، فاذا بقلبى يقفز فى شدة واذا بالدماء الحارة تتدفق فى عروقى ، واذا

بالعرق يتصبب من وجهى فأخرج منديلى وأجففه ثم أدسه فى سرعة فى جيبى .

ونهضت ومددت يدى الأصافح يدها الممدودة الى وأنا مأخوذ ، ومس أذنى صوت حمدى مسنا غريبا وهو يقول :

ــ زوجتى فتحية .. صديقى على .

فقلت فى صوت أجش يتحشرج :

ــ تشرفنا ..

وجلسنا وراح حمدى يتحدث ، ولكنى كنت مشغولا بالمشاعر التى استيقظت فى أعماقى وباختلاس النظر الى الزوجة ، وتلاقت عيوننا مرة فأشرق وجهها بابتسامة فغضضت من بصرى سريعا .. وقد ازداد وجيب قلبى وربا اضطرابى .

واستمر حمدى فى حديثه وأنا أشاركه بايماءة من رأسى أو بسمة انتزعتها من بين شفتى ، ونهضت الزوجة وغادرت الغرفة فاذا عينى تتلصصان خلفها ، وغابت عنا قليلا ثم عادت تقول :

ــ تفضلا ..

فنهضنا وانطلقنا الى المائدة ، وجلست صامتا وكأنما أراد حمدى أن يخرجنى من صمتى فقال :

ــ قرأت فتحية روايتك الأخيرة التى أهديتها لى ، وقد اختلفنا فيها ..

فدق قلبى فى عنف وأرهفت حواسى ، وقلت وانا أنظر الى حمدى :

ــ وفيم اختلافكما ؟

فقالت فتحية :

ــ قال حمدى انها قصة حياتك ، وقلت انها قصة من الحياة ولكنها ليست قصة حياة المؤلف .

فالتفت اليها وقلت متخابثا :

ــ وما الذى جعلك تقررين أنها ليست قصة حياة المؤلف ؟ .

فاذا بها تقول فى ثبات دون أن يختلج لها طرف :

ــ ظهرت الصناعة فى بعض مواقف الحب ، بينا أن المؤلف الذى يروى قصة حياته يرويها فى بساطة وحرارة وصدق .

فقال حمدى فى ثقة :

ــ انها قصة حياتك ولا شك ..

فقلت وعيناى تنتقلان من وجه حمدى لتستقرا قليلا على وجهها :

ــ انها ليست قصة حياتى ، بل هى قصة حياة صديق عشت معه سنين طويلة ..

وساد الصمت لحظة تبادل فيها الزوجان النظرات ، ثم قالت فتحية :

ــ انى عاتبة على قصاصينا ..

فقلت وأنا أنظر اليها :

ــ لماذا ؟

ــ لأن أحداثا هامة كثيرة تمر بهم دون أن يسجلوها .

ــ لعل تلك الأحداث التى تظنيها ذات خطر ليست هامة من وجهة نظرهم ، فالحادثة الهامة عند القصاص هى التى تحرك وجدانه وتلهمه وإن بدت لغيره من الناس تافهة لا تستحق التفاتا .

فقالت فتحية وهى تبتسم :

ــ ما قصدت غير هذا ..

فقال حمدى :

ــ اضربى لنا مثلا .

فمالت الى الخلف وقالت وهى تنظر الىّ بعينيها الواسعتين وقد توهج فيهما بريق :

ـــ كشك الموسيقى فى حديقة الأزبكية . . هل مررت به بعد أن شق الطريق الجديد الحديقة هل رأيته وقد ألقى ذليلا ؟ ألا تربطك به ذكريات حبيبة ؟ لماذا لا تسجل ما يبعثه الكشك فى نفسك من مشاعر واحساسات ؟!

ولمحت بسمة خبيثة تولد على طرف فمها ، فاضطربت واشتد وجيب قلبى وتفصد العرق منى حتى أحسست به يجرى فى ظهرى ، وهممت أن أتكلم ولكننى لم أجد لسانى . وزاد فى ارتباكى نظراتها الخبيثة التى تنضح بها عيناها ، فأطرقت قليلا أستجمع نفسى التى ذهبت شعاعا ، حتى اذا ما أفرخ روعى قليلا قلت :

ـــ فكرة بديعة .

فاسترسلت فى حديثها :

ـــ أظن أنك عاصرت « صالة سانتى » وموسيقى الصياد .

ـــ انى عاصرتها من غير شك ، وأحسب أنك سمعت عن هذه الحقبة ..

وفضحتنى نظراتى التى كنت أصوبها اليها فلم ترتبك بل ظلت هادئة وقالت فى ثبات :

ـــ بل كنت شابة فى ذلك الزمن، وكنت أداوم على الذهاب الى حديقة الأزبكية عصر يوم الأحد لأصغى الى موسيقى الصياد . .

وقال حمدى وهو يضحك :

ـــ كل ما أذكره عن كشك الموسيقى اننى قرأت فى الصحف يوما دعوة لاجتماع الراسبين فى البكالوريا عند الكشك وكنت من الراسبين ، فذهبت اليه لأجتمع برفقائى الخائبين .

والتفتت الى فتحية وقالت :

ــ لماذا لا تكتب للسينما قصة حياة الصياد ؟ ..

فقلت فى دهش :

ــ أتظنين أن حياته تصلح لتكون موضوعا سينمائيا ؟

فقالت وهى تنظر الىّ فى استخفاف :

ــ وهل كانت حياة فيليب سوسة تصلح لتكون موضوعا سينمائيا ، انظر ماذا فعلوا من موسيقاه ، انهم يقدرون فنانيهم ويتفننون فى ابراز جوانب عظمتهم .

ــ كان من الميسور على واضع قصة حياة سوسة أن يجد قصة حب تدور حولها القصة أما من يتصدى لكتابة قصة حياة الصياد فسيقاسى الأمرين اذا ما فكر فى قصة الحب التى سينسج حولها روايته ، لأن المرأة المصرية فى عصره لم يكن لها اثر فى المجتمع ..

ورمتنى بنظرة فهمت مرماها فأطرقت وراح العرق يتصبب منى ، وكأنما عز عليها أن تتركنى أتنفس فقالت فى سخرية :

ــ من يسمعك يحسب أن الصياد وجد فى القرن التاسع عشر ، اننا ــ أنا وأنت وحمدى ممن عاصروه ــ أو ليست لأحدنا قصة حب يمكن أن تكون الخيط الذى ينسج منه المؤلف قصة حياة الصياد ؟ .

وخفق قلبى فى شدة ، وانتشر القلق فى جوفى فأطرقت لاتحامى نظراتها التى كانت تزيد فى ارتباكى . وساد الصمت برهة كأنما كان كل منا يستجمع قواه للجولة الثانية ، واذا بصوت حمدى يقطع السكون فيقول :

ــ على ذكر الحب ، قل لى ما هى دلائل الحب ؟

فقلت وأنا أتصنع الهدوء :

ـــ هى أن نتلمس المعاذير لأخطاء من نحب .

فقالت متحية دون أن تضطرب أو يتهدج صوتها :

ـــ بل خير دليل على الحب هو الفرار ممن نحب .

فأخذت وأحسست جفافا فى حلقى ، وخيل الى أننى اصبحت كفأر فى مصيدة فجعلت أتلفت دون سبب وعقد لسانى ، ومن حسن حظى قال حمدى منفعلا :

ـــ لا ، هذا ليس رأيك فى الحب ، هذا رأى جديد .

فقالت له وهى تبتسم :

ـــ انك تعرف أننى لا أحب الجمود ، وأننى من عشاق التجديد فى أفكارى ..

ورأيت أن أشترك فى الحديث حتى لا يفطن حمدى الى ما اعترانى من اضطراب ، فقلت له وأنا أتكلف الابتسام :

ـــ وماذا كان رأيها فى الحب قبل الساعة ؟

فقال حمدى وهو يرمقها بطرف عينه :

ـــ كانت ترى أن الهدية هى خير معبر عن الحب ..

فقالت وهى تضحك :

ـــ ما أيسر الربط بين الرأيين ، فى فورات الحب الأولى يكون الفرار ممن تحب دليل الحب ، أما اذا هدأ الحب واستقر فالهدايا هى مقياس الحب ..

فقال حمدى فى حماسة :

ـــ اننى لا أوافق على هذا أبدا .

ـــ قل الصدق ولا تكتمه ، أما كنت تهابنى وتحاول ان تفر منى بعد أن تعارفنا قبل أن نتزوج ؟

فأحسست قلبى يغوص فى قدمى والدماء تتدفق حارة فى

شراييني ، واتسعت عيناي ولفني اضطراب ولم أقو على كتم ما بي ، فدفعت الكرسي الى الخلف ونهضت فقال لي حمدي :

ــ كل .. انك لم تأكل شيئا .

فقلت في صوت متهدج :

ــ شكرا فقد شبعت .

وانسحبت بعيدا لأهرب من نظراتها التي كانت تعبث بي ، وتخز روحي ، ولأجمع شتات نفسي وأتأهب لتلقي لذعاتها التي كانت تسددها الي كالسهام .

وانتقلنا الى غرفة الاستقبال واسترخيت ، وكأنما عز عليها أن تدعني استريح فأدامت النظر الي ثم قالت :

ــ يخيل الي أنني رأيتك قبل اليوم .

فاعتدلت مذعورا .. انني أعرفها جريئة ولكني ما كنت أظنها تتمادى الى هذا الحد ، ظننت ساعة أن قدمني زوجها اليها أن السنين الطويلة التي تقضت منذ كنا جارين صغيرين نلهو ونعبث قد بدلتها ، فاذا بها ما زالت طائشة كعهدي بها فقلت :

ــ لا أظن أننا تقابلنا قبل اليوم .

وهمت بالكلام ، وتلاقت عيوننا فقرأت في عيني توسلاتي اليها أن تكف عن ذلك العبث فلم تأبه بي ، بل استمرت في وخزي وقالت :

ــ لعلي رأيت صورتك في كتاب من كتبك .

فقال حمدي :

ــ انه لم ينشر صورته في أي من كتبه ..

ورأيت أن خير ما أفعله ألا أترك لها فرصة للحديث ، فعزمت على أن أثرثر وأن أستمر في الثرثرة ، ثم استأذن في الانصراف

قبل أن ترميني بأسئلتها الخبيثة التي تشيع الاضطراب في أوصالي فقلت :

— لست من المؤمنين بنشر صور المؤلفين ، فالقراء يرسمون للمؤلف في أخيلتهم صورة ما فاذا ما رأوا صورته صدمتهم الحقيقة ، انني أذكر أنني كنت في احدى المكتبات يوما وقت أن جاء أحد أصحاب المكتبات العراقيين يشترى بعض كتبي . كان يطلب بعض مئات من كل كتاب ، وظن عامل المكتبة أنه اذا قام بتقديمي الى الرجل فأنه يسدي الى خدمة ، فقال للرجل وكان يرتدي جبة خضراء وعمامته خضراء تزين وجهه لحية سوداء مستديرة :

— حضرته مؤلف هذه الكتب .

فالتفت الرجل الى ثم قال في انكار :

— أبدا ، ان مؤلف هذه الكتب رجل مسن ذو لحية بيضاء .

وأصر عامل المكتبة على أنني المؤلف .. وبانت في ملامح الرجل خيبة الأمل . ثم ظهر الأثر العملي لكشفه شخصيتي فهبط العدد الذي كان يطلبه من كتبي الى رقم لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة عددا .

ثم التفت اليها مضطربا فاذا بها تتحفز للكلام فتقاصرت الى نفسي وانكمشت ، وقبل أن تتحرك شفتاها نهض حمدي وانصرف من الغرفة وتركنا منفردين ، فقالت في هدوء :

— ماالذي جاء بك اليوم ؟

— دعاني حمدي للغداء .

— أكنت تعرف أنك ستلقاني .. ؟

— لم يدر بخلدي ..

فقالت هازئة :

ـــ أنا واثقة من ذلك ، فلو كنت تعرفت ما جئت .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأنك ما زلت تخشانى .. تفضل الفرار منى على مواجهتى .

فقلت فى ارتباك :

ـــ أبدا ..

فقالت فى دهش :

ـــ ماذا دهاك ؟ أين لسانك الذرب الذى كان يطلق السباب كالقذائف ؟

فقلت فى تخاذل :

ـــ أدركه الهرم .. أصبح يتعثر .

ولحت حمدى مقبلا فنهضت مستأذنا فى الانصراف ، وصافحته ثم مددت يدى اليها فأحسست يدها تضغط على يدى ، وخيل الى أن عينيها تصيحان بى فى هزء :

« ما زلت تخشانى .. ستفر منى كما كنت تفر » .

فارتبكت وغضضت من بصرى ، واذا بصوتها يمس أذنى هادئا وان أوحت ذبذباته بالسخرية :

ـــ نرجو أن تشرفنا بزيارتك .

فتمتمت :

ـــ متشكر .. متشكر .

ثم انصرفت وأنا مضطرب النفس مأخوذ ، ترن فى أذنى لذعاتها ، وتتخايل لعينى بسماتها ، فترتفع حرارتى ويربو اضطرابى .

وبلغت دارى وتمددت فى مقعد طويل ، فاذا بخيال فتحية يحتل رأسى ، واذا بصوتها يرن فى أغوارى « كشك الموسيقى ..

صالة سانتى .. موسيقى الصياد .. خير دليل على الحب هو الفرار ممن تحب .. انك تفضل الفرار منى على مواجهتى » .

وطفت الذكريات على سطح ذهنى وتهتكت أسجاف الماضى ، فاذا بى أرى فتحية بقامتها المتناسقة وقد ثبتت ـ كعادتها ـ قاعدة حقيبة كتبها على طرف عجيزتها وأسندتها بذراعها ، تنطلق رشيقة كالغزال فى الطريق الموصل الى دارينا ، فقد كانت دارها على مرمى حجر من دارنا .

ورأيت نفسى أسير على بعد خطوات منها أختلس النظر الى بديع تكوينها ، كانت فى السادسة عشرة ، معتدلة القامة سوداء الشعر والعينين خمرية اللون ، تمتاز بأنوثة طاغية . وكنت فى السابعة عشرة تتأجج فى صدرى ثورة عارمة يكبح جماحها ذلك الخجل الذى كان يستبد بى ويعقد لسانى اذا ما تلاقت عيناى بعينى فتاة ! ...

وجدت نفسى أمام فتحية وجها لوجه أكثر من مرة ، قابلتها وهى خارجة من مدرستها الفرنسية فتظاهرت بالارتباك لسيرها وسط فتيات صغيرات ، ثم ابتسمت لى ولكننى لم أجرؤ على أن أبادلها الابتسام وان كنت فى قرارة نفسى أشتهى ذلك وأتمناه .

وتلاقينا مرة فوق سطح دارنا ، فجعلت تغدو وتروح أمامى فى ثوب منزلى بسيط يبرز مفاتنها ، فثارت مشاعرى وراودتنى فكرة تحيتها والتقدم اليها لأنعم بحديثها ، ولكن خجلى أورثنى ضعفا فراح قلبى يدق فى عنف وسرى فى بدنى اضطراب . وكأنما أرادت أن تشد أزرى فبدأتنى بالتحية ، فأومأت لها برأسى وماتت على شفتى الكلمات .

والتقينا ذات ليلة مصادفة فى الطريق الهادىء الموصل الى

دارينا ، كنت عائدا من السينما وكانت تسير على بعد خطوات منى ، والتفتت خلفها فلمحتنى فخففت فى خطوها لألحق بها وأحييها وأجاذبها الحديث ، فما كان فى الطريق غيرنا ، ولكن شجاعتى خانتنى وانتشرت الرهبة فى جوفى وخفق قلبى وسرى فى بدنى الاضطراب ، فضيقت خطاى حتى دلفت الى دارها ، وزحفت الى دارى وأنا حانق على نفسى ضائق بذلك الضعف الذى يستبد بى كلما هممت بمحادثة فتاة !

وضاقت فتحية بخجلى ولم تستطع الصبر حتى تحل عقدة لسانى ، وما كانت تستطيع أن تعيش بلا صديق فتوطدت بينها وبين فريد أحد رفاقى أواصر الصداقة .. صارا يخرجان معا اذا أقبل المساء يجولان فى الطرقات التى تعجز المصابيح الخافتة عن تبديد ظلامها ، أو يذهبان الى السينما ، وقد رأيته أكثر من مرة يتأبط ذراعها فكان قلبى يدوى فى عنف بين ضلوعى ، وأمر متسللا خشية أن يلمحانى ! ..

ورأيتها ذات يوم تدخل بيت صديقى فى وضح النهار ، فأحسست غصة فى حلقى ومرارة فى فمى ، ثم لويت شفتى فى اشمئزاز ...

والتقينا بعدها وجها لوجه فلم أضطرب ولم يخفق فؤادى ولم تتدفق الدماء حارة فى عروقى ، ولأول مرة حلت عقدة لسانى فركبتها بسخريتى حتى وسعت خطوها فرارا منى ، وخيل الى أننى لم أعد أهابها بعد أن تقوض الصرح المقدس الذى أقمته لها فى خيالى .

وسئمت فريد فهجرته ، وسرعان ما صادفت فهمى بعد أن تركت فريد يتلظى بنار البعاد ، وكانت ترقبه وهو يذرع الطريق جيئة

وذهابا تحت شباكها وهو محطم القلب فكانت تشمخ برأسها في استعلاء ، أرضى غرورها أن تجد شابا مطرودا من نعيمها يتهافت عليها تهافت الفراش فى النار !!

وصعدت يوما الى سطح دارها ، وما هى الا دقائق حتى لمحتها صاعدة فلم تسر فى بدنى تلك الرعدة التى كانت تسرى فيه كلما رأيتها ، وكانت فى يدى وردة حمراء فشممتها ووضعتها على سور السطح ، واقتربت منى وحيتنى فرددت عليها تحيتها وأنا أتظاهر بعدم الاكتراث ، ولمحت فى صدرها دبوسا على شكل حرف (ف) فقلت لها فى سخرية :

— أيرمز هذا الدبوس الى فريد أو الى فهمى ؟

فراحت تسير أمامى وهى تتمايل فى دلال ، فبدأت الدماء الحارة تتدفق فى عروقى وثارت فى نفسى رغبات ، ولكننى أخذت فى كبح جماحها وقلت :

— يخيل الى أنك تختارين أصدقاءك ممن تبدأ أسماؤهم بحرف (ف) .

فقالت وهى تسير فى خطوات أقرب الى الرقص :

— وماذا فى ذلك ؟

— لا شىء . . كل ما فى الأمر أننى أحمد الله أن اسمى لا يبدأ بهذا الحرف ! . .

وبالغت فى تمايلها فراح كل ما فيها يرقص ، فقلت لها وأنا أحاول أن أبدو هادئا :

— قد يدير هذا الدلال رأس فريد أو رأس فهمى .

وفى الحق بدأ رأسى يدور ، ولو طاوعت نفسى لضممتها الى صدرى . . ولكننى كنت أصارع مشاعرى المتفجرة فى أعماقى ،

ومدت يدها وأخذت الوردة وراحت تقطف بعض أوراقها فقلت لها :

— وماذا تفعلين ؟

— أهذبها ، وأرجو أن أوفق فى تهذيب صاحبها .

فقلت لها وأنا أبتسم فى استخفاف :

— هيهات ..

وقدمت الى الوردة فأخذتها منها ، وكدت أضعف واستشعرت أن مقاومتى كادت تنهار ، فقذفت بالوردة من السطح ثم وليت الفرار ..

وخرجت مع فهمى فى الليل والنهار ، وانطلقا معا يجوبان الطرقات الهادئة وقد تشابكت الأيدى وهمست الشفاه وتحدثت العيون .. ومرت الأيام ودب السأم فى نفسها فطردت فهمى من جنتها وراحت تنقب عن عابد جديد ..

وفى يوم وقفة عيد الأضحى صعدت الى سطح دارها ، فألفيتها تلف ذراعها حول رقبة خروف العيد فقلت لها :

— لابد أن اسمه يبدأ بحرف « ف » .. فيفى مثلا .

فقالت وهى تنظر الى بعينيها السوداوين النجلاوين :

— ولماذا ؟

— لأنه صديقك الجديد .

فابتسمت وقالت :

— أتغار منه ؟

فقلت فى قسوة :

— ليس بينى وبينك ما يدعو الى الغيرة ، ولكننى أعجب .

— تعجب من ماذا ؟

— من استبدالك خروفا بخروف ، وان أخيرهم لخيرهم جميعا .

فلم تغضب ، بل ابتسمت وقالت :

ـ ولماذا ؟

ـ لأنه ليس له عقل ليفطن الى أنك تدللينه ثم تذبحينه .

فلاح الغرور فى عينيها وقالت :

ـ انني لا أفعل ذلك الا مع الخراف .

وراحت الشمس تغيب فى الأفق البعيد ، فسارت صوب السلم لتهبط فيه ثم التفتت الىّ وقالت :

ـ كل سنة وانت بخير . .

ـ وانت بخير . . والسنة اللى جايه تضحين بأربعة خرافة !

وانقضى العيد ، وفى ذات ليلة سرت تحت شباكها دون أن ألمحها واذا بصوتها يمس أذنى :

ـ اتمر هكذا دون أن تلقى تحية ؟ . .

فوقفت ورفعت رأسى اليها فرأيت على ضوء المصباح الخافت بسمة رقيقة تولد على شفتيها فقلت :

ـ مساء الخير .

ـ مساء النور . . غدا فى العاشرة صباحا سأنتظرك عند كشك الموسيقى بحديقة الأزبكية .

وانطلقت فى طريقى وقد أخذ قلبى يخفق بين ضلوعى وارهفت حواسى ، وهب شيطانى يزين لى الذهاب للقياها والنعيم بقربهـــا وليكن بعد ذلك ما يكون . .

ودخلت فراشى وأنا قلق أرق يتنازعنى وجدانى واصخت سمعى لصوت عقلى فراح يقول لى : انها ستذيقك طعم السعادة أياما ثم تلفظك لفظة النواة وتتركك حليف الضنى والسهاد وهى تنظر اليك متلذذة سعيدة بلوعتك منتشية لانتصارها عليك ، فلماذا

تنقاد اليها لحظات هنية يعقبها حسرات طويلة وهم مقيم ، فاشتر الكثير بالقليل .

وبت تلك الليلة وأنا أتقلب فى فراشى كأنما أتقلب على جمر ، وان كنت قد عزمت فى أعماقى على الفرار منها لأنجو بنفسى .

وأشرقت شمس اليوم الموعود فاذا بشيطانى يستيقظ ويوسوس فى صدرى ويغرينى بالذهاب ، فاليوم لنا وغدا يتكفل بنفسه . وخشيت أن ينتصر علىّ شيطانى فصحت فيه : لن أسير بقدمى الى حظيرة الخراف أبدا .

وهبت حواسى تشد أزر شيطانى فاذا بمشاعر رقيقة حالمة تنبثق فى أغوارى ، وخفت أن تندك مقاومتى وأن يقودنى ضعفى الى حتفى بظلفى فهرعت الى أبى ألوذ به ، قلت له :

ـــ فى سينما تريومف رواية رائعة واليوم آخر أيامها ، أرى أن نذهب لمشاهدتها فى عرض الساعة العاشرة .

وما زلت به حتى وافق فأفرخ روعى ، فلن يقو شيطانى على أن يقودنى اليها بعد أن ارتبطت مع أبى بميعاد !

وفى عصر ذلك اليوم أحسست رغبة فى الانطلاق الى حديقة الأزبكية ، فذهبت الى هناك واتجهت الى كشك الموسيقى ورحت أصغى الى موسيقى الصياد وفى القلب فرحة ، فقد أسعدنى أننى أغدو وأروح طليقا وأننى لم أسلم لها زمام أمرى لتقودنى الى الذل والهوان ..

وهمس فى أغوارى هامس : ان مجيئك الى هنا دليل على أنك أسيرها ... لماذا جئت الى كشك الموسيقى وما كنت تذهب اليه من قبل ؟ لقد استجبت لوحيها ، فاذا كنت قد هربت منها فى الصباح

فقد جئت فى المســــاء . وضقت بذلك الهامس فأخذت أحاول اسكاته ، وطفقت أسعى الأقنع نفسى أننى نشوان .

وتحاشيت مقابلتها فلم أعد أصعد الى سطح دارها ، وصرت أمر من طريق آخر غير ذلك الطريق الذى تطل عليه نافذتها المفضلة . وكنت أرى من شرفتى فريد وفتحى وهما يحومان حول دارها ذليلين حطمهما الهوى ، فكنت أحمد الله أننى لم أذعن لشيطانى وأرتمى فى أحضان تلك الفتنة العابثة العاتبة !

والتقينا مصادفة وجها لوجه ، فسرت رعدة فى أوصالى وراح قلبى يدق فى رعونة ، واستشعرت جفافا فى حلقى واضطربت أنفاسى واتسعت عيناى .. وحيتنى بايماءة من رأسها وأشرق وجهها بالابتسام ، وانطلقنا جنبا الى جنب . لم تعاتبنى لأننى لم أذهب الى كشك الموسيقى فى الميعاد ، ولم تشر الى ذلك الموضوع من قريب أو بعيد كأنما لم يحدث منى شىء ، فانتظم نفسى ورد الى طبعى ، وظللنا فى سيرنا حتى دنونا من دارها فقالت لى :

— اننى ذاهبة الليلة لسماع أم كلثوم فى صالة سانتى .

وفطنت الى أنها تواعدنى على اللقاء هناك ولكننى لم أنبس بكلمة . ودلفت الى دارها بعد أن حيتنى ، وانطلقت الى دارى وأنا هادىء النفس لم يستيقظ شيطانى ، وظلت مشاعرى فى سبات ولم يصبح صدرى مسرحا لصراع رغباتى المتضاربة ، فما كنت فى ذلك الوقت أجرؤ على المغيب عن الدار بعد التاسعة مساء ! ..

وفى عصر اليوم التالى هرعت الى حديقة الأزبكية وصعدت الى صالة سانتى وجعلت أتجول فى جنباتها ، وتقضت أيام واستشعرت حنينا اليها ، واستبدت بى رغبة مقابلتها فهممت بالذهاب الى سطح دارها ، وانتهز شيطانى فرصة استنامة كبريائى

فراح يحرضنى على البوح لها بحبى . وكدت أركن الى وسوساته واذا بمقاومتى تهب من رقادها تصرخ بى أن أضع حدا لضعفى وأن أقضى على ذلك العبث لأنتشل نفسى من البوار ..

وفكرت وأمعنت الفكر ودبرت كل شيء ، حتى اذا ما خيم الظلام خرجت أنقب عن فتاة كنت أعرفها ، فلما قابلتها سرت معها وأنا اقودها لأنفذ ما دبرت .

ووصلنا الى الطريق الهادىء الذى تطل عليه نافذتها فاستشعرت رهبة وكدت أدور على عقبى وأعود من حيث جئت ، ولكنى أخذت أتقدم حتى وقفنا تحت المصباح القريب منها . ولمحتها تنظر الينا فاضطربت ولكننى لم أحجم عن انفاذ ما حزمت عليه أمرى ، فضممت الفتاة الى وقبلتها .. فأغلقت فتحية شباكها فى عنف ، فأثلج صدرى وأحسست احساس الناجى من الغرق بعد أن حسبت أن كل ما بينى وبينها قد انتهى ..

ولكن تصرمت الأيام ولم تخمد ثورة روحى ، بل كانت تزداد تأججا وضراما .. وطغى وجدى واستبد بى شوق فوطدت العزم على الذهاب اليها أبثها حبى ، وأروى ذلك الظمأ الذى أحسه فى اغوار مشاعرى .. فلماذا أحكم على نفسى بالموت عطشا والرى مبذول لى ؟؟

وارتديت ثيابى وبالغت فى تأنقى ، ثم هرعت الى دارها خافق القلب . وقبل أن أصعد الى السطح علمت أنهم رحلوا وغادروا الحى ، فانصرفت منقبض النفس كسير الفؤاد ..

رحت أنقب عنها فى كل مكان .. كنت اذهب الى حديقة الأزبكية فى الغدو والآصال لعلى ألقاها ولكن هيهات ، وكنت كلما ذهبت الى السينما أدور بعينى فى أرجائها أبحث عنها هنا وهناك

دون جدوى ، فدب اليأس فى قلبى وحقدت على نفسى وتمنيت لو اننى أطعمت شيطانى ورويت ظمأ روحى واسترحت مما أنا فيه من عذاب ، فالنار التى تتلظى فى أحشائى أشد قسوة من نار الهجر بعد الوصال .

ووطنت النفس على أن أعب من كأسها اذا قابلتها ولن أحفل بما يكون — فقد كان كل همى أن أسكت حواسى التى كانت تؤرقنى وتخزنى وخزا ما أقساه ..

وتقضت السنون ، وقد غابت عنى كما تغيب القطرة فى المحيط .. ولم تجمعنا الا صدفة اليوم . كنت احسب أن عاطفتى نحوها قد ماتت فاذا بلقائنا يؤكد لى أن النار الخابية تحت الرماد سرعان ما تتأجج اذا نفخ فيها نافخ أو حركها عود .

وخطر لى خاطر خفق له قلبى : ترى لو دعتنى بعد تلك السنين الطويلة التى تفصل بيننا ، أأهرع اليها ملبيا دعوتها ؟ . وهززت رأسى لأفيق من الحلم الذى عبث بأوتار فؤادى ، وجعل الدم الحار يتدفق فى عروقى بعد طول ركود .

وأسدلت ستار النسيان على ذلك الماضى ، ولكن ما ان مرت ثلاثة ايام على لقائى بهــا فى بيت زوجها حتى دق التليفون فى مكتبى ، واذا بصـــوت رقيق يمس أذنى .. فاضطربت وانبهرت أنفاسى وتصبب العرق منى .. كانت فتحية تخبرنى أنها ذاهبة وحدها فى المساء الى سينما كريستال ، فلما سألتها عن حمدى أنبأتنى أنه غائب الليلة فقد سافر الى الاسكندرية .

ووضعت سماعة التليفون وأنا خافق القلب ، وراحت الأفكار تنثال على رأسى .. واستيقظ شيطانى يصرخ بى أن الفرصة التى عشت أرقبها سنين طويلة قد سنحت فعلى ألا أدعها تنساب من بين

أصابعى ، وأن أروى عطشى واشبع جوعى وأطفىء تلك النار المتأججة فى أحشائى ، فاستقر رايى على ان أذهب للقياها ..

وبدأت الشمس فى الغروب فانتابنى قلق ولفتنى حــيرة ، وارهفت حواسى ودق قلبى وجعلت أزفر فى صــــوت مســـموع ، وانبثقت فى جوفى مشاعر متباينة متصارعة ، فانطلقت الى زوجتى لأنتشل روحى من تلك الدوامة التى أدور فيها وقلت لها .

ــ اننا ذاهبان الليلة الى سينما متروبول .

وخرجت أنا وزوجى وسرنا فى الشارع الجديد الذى شق فى حديقة الأزبكية ، فلما وقع بصرى على كشك الموسيقى الملقى على جانب الطريق فى اهمال كامرأة عجوز ، أحسست غصة فى حلقى ودمعة تترقرق فى مقلتى .. وانطلقت صامتا أمضغ حزنى وحدى .. حتى اذا بلغنا شارع فؤاد وقفت زوجى تنظــر فى واجهات المحال .. ووقع بصرى على مرآة قريبة منى فأدمت النظر الى وجهى ، فلما لمحت تلك الشعرات البيض التى نبتت فى رأسى استشعرت أسى ، وتيقنت أننى أصبحت أعيش على هامش الحياة ككشك الموسيقى القابع الآن فى ذلة على جانب الطريق .. بعد أن كان ينبض بالقوة ويبعث فى النفوس الآمال ..

الجوع

ـــ شريفة .. أليس عندك ما آكله ؟ انى اموت من الجوع .

ودوى الصوت فى جنبات الحجرة ـــ وان كان قد خرج من بين شفتى الأم العجوز التى جدل الشعر الأبيض رأسها وكسا الهزال عظمها ـــ خافتا واهنا ، والتفتت شريفة بعينين زائغتين الى حيث كانت امها وصراخ بطنها يطغى على جلبة السيارات وجلجلة الترام وضوضاء العربات المنطلقة فى شـــارع الفجالة ، والتى كانت عجلاتها ترى من النافذة الوحيدة العالية التى يتسلل الضوء منها ، فقد كانت الغرفة ضاربة فى بطن الأرض ينزل اليها بدرجات من حجر أكلته الأقدام الحافية والأحذية البالية .

ونهضت شريفة فى تراخ .. وكانت على يقين من أن البيت قد خلا من كل ما يؤكل ، فقد بحثت ونقبت بالأمس لما جن الليل عن كسرة خبز ولم تجد شيئا .. ونامت طاوية وقد ضغطت بطنها ببطن أمها الخاوية ، بيد أنها راحت تتلفت فى يأس فلم تر الا الجنادب تندفع من الثقوب المنتشرة فى كل مكان من الجدار الى الحصيرة الممزقة التى تغطى جزءا من الأرض السوداء ، تجذب

منها اعوادا تحملها الى جحورها ، وصفوفا من النمل فى غدو ورواح ورواح فى حركة دائبة .

وطافت بأرجاء الحجرة .. والتقت عيناها الذابلتان بعينى امها اللتين كان يبيض سوادهما فغصت وسرى بين ضلوعها البارزة من تحت جلدها يأس مرير .. الا انها لم تستسلم له ، بل ذهبت وهى تجر نفسها جرا الى الصنبور وفتحته وأخذت تغسل وجهها بالماء القراح ، فقد ذابت آخر قطعة من الصابون عرفت طريقها الى هذا الخندق منذ شهور . منذ أن قطعت كل صلة تربطها بالبقال القريب من مسرح مأساتها .

ومدت يدا نفرت عروقها وتناولت مشطا لم تبق به الا أسنان قليلة ، ونظرت الى وجهها فى بقايا مرآة كانت مثبتة فوق صنبور الماء ، وراح المشط يتخلل شعرها وهى شاردة ، ولمحت هلالا أسود يحف بأسفل عينيها فدق قلبها فزعا .. انها لم تبلغ الخامسة والعشرين بعد وقد غاض لونها ولاح الجهد فى كل أجوف وفى كل بارز من محياها : « ما هذا الاصفرار يا شريفة ؟ شفتاك جفتا وتشققتا .. عيناك خبتا .. أين بريقهما ؟ » . وفرت من امام المرآة كأنما نفر من شبح .

وراحت تخلع ثوبها الممزق فى تخاذل ، والقت نظرة سريعة على قميصها فوقعت عيناها على ثقوب انتشرت به . وفكرت فى أن تستبدل به آخر ولكنها تذكرت انها لم تخلع ذلك الآخر الا بعد أن صار كالجلد من العرق الغزير الذى امتصه ولم تجد معها ما تشترى به صابونا لتغسله . فضغطت بيدها على القميص تبسطه ، ثم ذهبت الى حيث تحتفظ بالثوب الوحيد الذى تخرج به وتناولته واخذت تلبسه فى حرص .

ورأت الأم ابنتها وهى تسبل ثوب الخروج على الأسمال الملتصقة بجسدها ، ففطنت الى ما تعتزم أن تفعله ، فنهضت اليها وسارت تجر نفسها وتقول :

ـــ انى ذاهبة معك يا شريفة ..

وصمتت شريفة ولم تعترض على خروج امها معها وان كانت على يقين من أن ذلك الخروج لا جدوى منه ، بل انه يعوق حركتها وقد يضيع الفرص القليلة التى تلوح لها . كانت تفهم ما يدور برأس العجوز .. انها فى لهفة على أن تطمئن الى أن شيئا ما وشيك الدخول الى جوفها ليكتم أنفاس ذلك الغول الذى ينهش حشاياها .

وخرجتا الى بئر السلم ولم تحسا رطوبة المكان ، ولم تزكم أنفيهما الرائحة العفنة التى تفوح منه ، ولم تنكرا الظلام الذى تراكم بعضه فوق بعض وان كان النهار قد انتصف . فالظلام الذى ران على روحيهما أثقل من اى ظلام ملأ عيون البشر .

وراحتا ترقيان السلم فى هوداة وان كانتا تترنحان من الوهن خشية أن تزل القدم ، وخرجتا الى الطريق فبهر الضوء عينى شريفة ، بينما لم تستشعر الأم شيئا فقد أسبلت جفنيها على عينيها اللتين كاد سوادهما أن يذهب ، بعد أن علقت ذراعها فى ذراع ابنتها وتركتها تقودها الى حيث اعتادتا أن تقفا فى مثل هــذه الساعة من النهار .

وولتا وجهيهما شطر ميدان المحطة ، وما سارتا خطوات حتى كانتا امام دكان العم سليمان البقال فألفت شريفة نفسها عاجزة عن أن تكبح جماح عينيها من أن تلتفت اليه . كانت فى قرارة نفسها تمقت أن ترى سحنته البغيضة التى زاد فى النفور منها ذلك الأنف الضخم ، والعينان الضيقتان اللتان تشعان خبثا ، وتلك الحفر

الصغيرة المنتشرة فى وجهه التى تركها الجدى خلفه ، بيد أن شيئا ما فى أعماقها يرغمها على أن تلوى عنقها نحوه .

رأته بكرشه البارزة وجلبابه الذى يغطى الزيت صدره ، وشاربه الذى تركه يملأ وجهه دون أن يخطر على باله أن يهذبه مرة ، وجاهدت حتى أشاحت بوجهها عنه ووسعت من خطوها وراحت تجر أمها التى أسلمت لها قيادها ، ولم تلتفت ناحية دكان العم سليمان وتبصق كما اعتادت أن تفعل كلما مرت به ، فقد أمات الجوع كل رغبة وقضى على كل شهوة من شهوات الجسد الا شهوة طلب القوت الذى يمسك الرمق .

ووصلتا الى دكان السماك فاذا بهما تتمهلان فى سيرهما ، ونفذت رائحة السمك الى خياشيمهما فسال لعابهما .. ومررت الأم لسانها على شفتيها الجافتين ومدت عينيها الى حيث تشتهى ، فأحست بكيانها كله يهفو الى تلك القطع التى تكدست أمام السماك والتى تركزت فيها كل شهواتها وآمالها .

وأحست شريفة ما أحست به أمها ، وشعرت كأن يدا قوية لا قلب لها تعتصر أمعاءها اعتصارا ، وبللت الدموع مقلتيها وراحت تبلع ريقها لتريح تلك الشوكة التى خيل اليها أنها واقفة فى حلقها ، ثم جذبت أمها فى رفق وهى تقول فى صوت خافت مضطرب :

ــ سنشترى سمكا عند عودتنا .

واستأنفتا سيرهما . « وأين النقود يا شريفة ؟! انك خرجت بالأمس كما تخرجين اليوم وكنت تأملين أن تعودى وفى يديك ما يكفيكما أياما وقد عدت بلا شىء .. كنت بالأمس سيئة الحظ .. أما اليوم فسأعود بما أشترى به السمك . لن يتخلى الحظ مرتين .

السمك ! رائحته أروع من أزكى عطر . طعمه أشهى .. أتذكرين طعمه يا شريفة ؟ ! رائحة العم سليمان نتنة ، طعمة .. » وتقلصت عضلات وجهها وأحست رغبة فى أن تبصق ولكنها لم تفعل .

ووصلتا الى ميدان المحطة ووقفتا على الطوار بالقرب من اشارة المرور وراحتا ترقبان السيارات فى اندفاعها وترصدان اشارة المرور ، حتى اذا ما أضاء النور الأحمر ووقفت السيارات القادمة من شارع الجمهورية ابتعدت الأم عن ابنتها وان كانت ترعاها بعينيها وعيون خوالجها وجوارحها ومشاعرها ، فقد أزفت اللحظة التى يتقرر فيها مصيرهما .

وراحت شريفة تستعرض السيارات فى قلق ولهفة ، ورأت شابا جالسا خلف عجلة القيادة انه وحده . « هذا هو بغيتك يا شريفة . سيارة فاخرة . انه غنى . سيدفع جيدا » وأشارت له بيدها ملوحة « انه يبتسم لك يا شريفة .. أسرعى .. اسرعى قبل أن تفتح اشارة المرور » .

واندفعت شريفة صوب السيارة وأمها ترقبها واجفة القلب ترجو بكل جوارحها ان توفق ابنتها فى يومها هذا حتى لا تموتا جوعا .. شريفة تمرق بين السيارات .. انها تدنو من السيارة الحمراء ، ها هى ذى يدها على مقبض الباب .. ستفتحه .. ستفتحه وتقفز .. وى .. وى .. فتحت الاشارة .. السيارات تتحرك .. السيارة الحمراء سارت .. شريفة ! .. شريفة ! .. شريفة ! .

وأخذت شريفة تجاهد لتعود الى الطوار دون أن تدهمها السيارات ، وأمها ترقبها فى خوف شديد وجسدها الواهن يضطرب اضطرابا ، وكادت تند منها صيحات جزع ، بيد أن شريفة استطاعت

أن تنفذت من الأخطار وتعود الى حيث وقفت أمها تنتفض . وما مرت لحظات حتى أخذتا ترصدان اشارة المرور مرة أخرى بعد أن انطلقت السيارة الحمراء فى طريقها وغابت عن عيونهما .

وركزت شريفة بصرها على الاشارة الحمراء . وسرعان ما شردت ورأت نفسها فى محل الخردوات الذى كانت تعمل به . اتضح المحل لها كأنما تراه رأى العين .. ها هو ذا مكانها خلف المعرض الزجاجى الذى نسقت فيه أنواع الدانتيلا ، وها هى زميلاتها الثلاث فى أماكنهن ، وها هو ذا محمد افندى بنظارته السميكة وشعره الأبيض وقلمه الذى لا يفارقه يدون به كل ما يخرج من المحل وكل ما يرد اليه ، وها هو ذا السلم الخشبى الذى يقود الى الغرفة العلوية ، غرفة صادق افندى صاحب المحل .

ورن فى أذنيها صوته .. انه يدوى فى أذنيها فى سكون الليل وفى جلبة النهار .. فى اليقظة وفى المنام :

— شريفة .. تعالى .

وراحت تصعد فى السلم الخشبى ودخلت عليه تحس رهبة . بيد أن هذه الرهبة سرعان ما ماتت لما ابتسم لها وقال :

— سرنى اجتهادك فى عملك يا شريفة ، وقد رأيت أن أكافئك .

ومد يده وربت على خدها فأحست تيار الخجل يشوى وجهها ، وارتجفت وراحت تتلفت فى قلق . ونادى قائلا :

— محمد أفندى .. تعال .

وصعد محمد أفندى وهو يلهث فقال له :

— ارفع مرتب شريفة خمسين قرشا .

« كان مرتبى ضئيلا ولكنى كنت أجد جنيهات فى يدى أول كل شهر . كنت آكل بها أنا وأمى وأدفع منها ايجار البيت » .

والتفتت الى أمها فرأتها ترقب اشارة المرور فى ضيق وملل ، كانت لا تزال خضراء . وعاد صوت صادق أفندى يرن فى أذنيها مناديا :

ـــ شريفة ! تعالى .

ورأت نفسها وهى تصعد فى الدرج الخشبى ، كان الليل يزحف وكانت الزبلات مشغولات بطلبات الزبائن . انهـــا هى وهـــو وحدهما .. فى عينيه بريق يخيفها ، ترى ماذا يريد منها ؟ وحين رفعت يدها لتهوى بها على وجهه .. كان فى ذلك الجواب على ما يريد .. انها غير نادمة .. بل راضية عما فعلت ، ورفع يده وهوى بها على وجهها ، ثم صاح وهو يزمجر :

ـــ محمد افندى ، تعال .. تعال .. يا سافلة .. يا ساقطة .. أنا رجل متزوج .. أنا رجل عينى مليانة .

ودخل محمدافندى يتكفأ ، وصاح صادق فيه :

ـــ اخرج هذه الساقطة من هنا .. اطردها .. لا مكان لمثل هذه الساقطة فى دكانى .. أخرجها .. اخرجى ..

ورأت نفسها وهى تسير والدموع تغسل وجهها ، وصوت يرن فى أعماقها : « الموت أحب الىّ مما يدعوننى اليه » .

وأضاء النور الأحمر وأغلق الطريق أمام السيارات القادمة من شارع الجمهورية ، وأسرعت الأم لتبتعد عن ابنتها وتتركها فى الميدان وحدها ، وان كانت معها بكل مشاعرها التى أيقظتها عضات الجوع القاسية .

وفرت شريفة السيارات بعينيها فرأت بالقرب منها سيارة بها رجل متقدم أنه صتبدها ، فخفت اليه وأمها ترقبها وقد كتمت أنفاسها رهبة .. شريفة تتقدم .. انها تفتح الباب .. انها تقفز الى داخل

السيارة . . أغلقت الباب خلفها . . لا تزال الاشارة حمراء . . متى تفتح ؟ ! متى تفتح ؟ !

وقبل أن تزفر الأم فى راحة وقعت عيناها على الرجل ، انه متجهم الوجه . . انه غاضب . . ثائر . . الباب يفتح . . شريفة تهبط من السيارة مطرقة الرأس . . الرجل يقفل الباب خلفها فى عنف . . الاشارة تفتح والسيارات تنطلق . . وأحست الأم أن قلبها يتمزق .

وعادت شريفة تنظر الى النور الأحمر وعاودها شرودها ، فرأت نفسها ليلة أن رجعت الى أمها بعد أن طردت من عملها . كانت تقص عليها قصتها وعبراتها تسيل على خديها . . وضمتها أمها الى صدرها وقبلتها فى حنان وقالت لها : لا تحزنى . غدا تجدين عملا آخر . . ما أكثر فرص العمل .

وراحت الأصوات ترن فى أذنيها مدوية متداخلة :

ـ آسف . . لسنافى حاجة الى عاملات جدد .

ـ عم سليمان . . هات رغيفين وبقرشين زيتون وبقرشين حلاوة . سأدفع لك بعد أن أعمل . . سأشتغل قريبا .

ـ لا توجد وظائف خالية .

ـ عم سليمان هات رغيفين وبقرشين حلاوة وصابونة .

ـ الحساب . . الحساب يا ست شريفة ! .

ـ سأدفع الحساب كله قريبا . .

ـ الايجار . . لا أستطيع أن أنتظر أكثر من هذا . . الايجار والا سألقى بكما فى الشارع . .

ـ هل سبق لك العمل ؟

ـ نعم .

ـــ اين شهادة خلو الطرف ؟

ـــ لم يعد عندنا ما نبيعه يا شريفة ، بعنا كل ما كان عنـــدنا يا بنتى .

ـــ لسنا فى حاجة الى موظفات .

ـــ لابد من شهادة حسن سير يكتبها لك من كنت تعملين عنده .

ـــ صادق أفندى .. ارحمنى .. أرجوك ..

ـــ اغربى عن وجهى .. لن أغش الناس ابدا .. ضميرى يأبى .. ضميرى يأبى ..

ـــ صادق أفندى .. أنا بريئة وأنت تعلم ..

ـــ سافلة .. فاجرة ..

ـــ شريفة ! انى أموت من الجوع .

ـــ وماذا افعل يا أمى ؟

ـــ اذهبى الى العم سليمان وهاتى رغيفين .

ـــ اقسم بالله ثلاثا انه لن يعطينا شيئا الا اذا دفعنا ما علينا ..

ـــ اذهبى اليه يا بنتى .. انى أموت من الجوع .

ورأت نفسها وهى تخرج مطرقة الرأس الى دكان العم سليمان .. كان الليل قد قارب على الانتصاف وكان باب الدكان الحصيرة المصنوع من صاج مدرج قد سحب استعدادا لأن يغلق ، وما كان أحد يستطيع أن يدخل منه الا اذا انحنى .. ووقفت شريفة أمام الباب لحظات وهى مترددة بين الاقبال والاحجام ، ثم تقـــدمت مسلوبة الارادة وحنت قامتها ودخلت فاذا بها هى والعم سليمان وحدهما ولا أحد معهما .

وقالت فى صوت خافت وهى تتحاشى أن تلتقى عيناها بعينيه :

ـــ اعطنى رغيفين وقطعة من الجبن .

ـــ الثمن .. أقسمت الا أعطى شيئا الا اذا قبضت ثمنه .

ـــ ليس معى الآن ما أدفعه .

.. وعادت الى البيت تحمل بين يديها أرغفة كثيرة ولفافات بها زيتون وجبن وحلوى وفى قلبها هم ثقيل .. فقد نال العم سليمان ما كانت تضن به على الرجال جميعا لقاء لقيمات تسكت صراخ البطون .

وأضىء النور الأحمر ووقفت السيارات القادمة من شارع الجمهورية ، وابتعدت الأم عن ابنتها وتقدمت شريفة تجوس خلال السيارات وتوجه نظرها الى عيون الرجال الجالسين فيها لعلها ترى فى عينى أحدهما نداء ،الا أن اشارة المرور فتحت قبل أن تعثر على من يحملها معه الى حيث يريد ، ثم يضع فى يدها نقودا تشترى بها سمكا لأمها .

وعادت الى الطوار تنتظر أن يقفل المرور وتقف السيارات لتستأنف محاولاتها ، وراحت صور حياتها تطفو على سطح ذهنها .. رأت صاحب البيت يصيح بها قائلا :

ـــ الايجار .. لن أستطيع أن أصبر أكثر مما صبرت ..

ورأت نفسها تقترب منه وتلتصق به .. وانهارت مقاومته .. وفى لحظات كان يقول لها :

ـــ بيتى كله لك .

ودست الايصالات فى صدرها .

ومرت شهور لم يفزعها فيها شبح ايجار الشقة ، وذات يوم جاء صاحب البيت وخفت اليه لتستقبله بالقبل كما اعتادت ان تفعل كلما جاء ، واذا به يستقبلها بلطمة قوية أعقبتها بصقة فى وجهها ثم زمجر قائلا :

ـ أريد الايجار .

وعاد الايجار يثقل كاهلها ويزيد فى همومها .

ورأت نفسها تخرج فى الليل والنهار وتعود بالطعام لأمها وتضع فى يدها كل ما يتبقى معها من نقود . كان راكبو السيارات أيسر صيدا وآمنه ، وقد أغراها ذلك أن تخرج كل يوم فى مثل هذا الوقت وتقف عند اشارة المرور تلقى شباكها . كان الأمر سهلا أول الأمر .. حملت الى بيوت كثيرة .. وتناولت أشهى الأطعمة ، وعادت بجنيهات ، وصعرت خدها للعم سليمان .. أما الآن فقد صار الأمر صعبا ، مرت أيام لم تنل فيها شيئا ، ذاب فيها ما كان عندها وعاد الجوع يطل بأنيابه البشعة على جحرها ، حتى أن أمها أضحت تخرج معها وتقف بعيدا لتطمئن الى أن شيئا ما وشيك الدخول الى جوفها !

واغلقت اشارة المرور أمام السيارات القادمة من شــــارع الجمهورية وابتعدت الأم عن ابنتها فى تخاذل ، كانت تحس أنها ستنهار ، وزاد فى وهنها أن اليأس بدأ ينتشر بين ضلوعها ، وقر فى رأسها أن يومها لن يكون افضل من أمسها . وانســـابت شريفة الى السيارات ، وأخذت تقلب عينيها فى راكبيها من غير حماس . لاح فى وجهها قنوط واعياء وسربلتها مسكنة تحرك الشفقة أكثر مما تحرك الاشتهاء .

وانطلقت السيارات فى طريقها ، وقفلت شريفة راجعة الى الطوار وهى تحس غيبوبة تسرى فى كيانها ، بيد أن ذهنها ظل يعمل .. رأت نفسها فى « جروبى » جالسة تحتسى القهوة عند الغروب .. كانت تجلس الى مائدة وحدها وكان المكان غاصا

بالناس ، وتقدم شاب على استحياء ونظر الى الكرسى الخالى امامها وقال :

ــ اتسمحين ؟

ــ تفضل .

وجلس .. وتحادثا .. وقبل أن ينصرفا كان صالح قد ضرب لها موعدا ليتقابلا .. والتقيا وتوجها الى السينما ، وقبل أن ينصرفا ذهب بها الى محل فاخر لبيع الحلوى واشترى كيلو شيكولاتة قدمه اليها : « يا مغفل ! شيكولاتة وليس فى بيتنا خبز ؟! لو أعطيتنى نصف ما انفقته على اليوم لكنت أسعد الناس » .

ونظرت الى اشارة المرور الخضراء فى شرود ، ثم اسبلت جفنيها على عينيها ومشى فى جسدها وهن شديد ، أحست أنهـا ستنهار بيد أن صوت صالح مس أذنيها فى وضوح وان بدا أنه قادم من مكان سحيق ، قال :

ــ شريفة سنسافر غدا الى الاسكندرية .

ــ امرك .

ــ سنتقابل فى السابعة صباحا .

ورأت نفسها وهى تتجه معه الى المطار فقد اصر على أن يذهبا اليها بالطائرة .. وعاودتهما الأفكار التى راودتها وهى فى الطائرة الى جواره : « يا مغفل لماذا كل هذا التبذير ؟ أعطنى بعض ما تبعثره فى الهواء أعطك ما تريد وأكثر » .

وتذكرت ما دار بينهما فى ذلك اليوم من حوار فأحست جسدها كله ينتفض وقلبها ينز أسى ، واستشعرت آلاما فى روحها تكاد تطغى على آلام الجوع الكافر :

ــ شريفة ! تعلق قلبى بك منذ أول يوم رأتك فيه عيناى . اريد

أن اتوج هذا الحب بالزواج فما رايك ؟ . . لماذا هذا الصمت ؟ قولى نعم أو لا . . قولى اى شىء . . أعرف يا شريفة أنك لست غنية وأعرف أن لك أما ليس لها غيرك . ستكون أمك أمى . . سيصبح لها ابن يرعاها ويكرم شيخوختها . . كل ما أريده يا شريفة زوجة تصون شرفى ؟ ما رأيك ؟

ــ صالح . . اعفنى أرجوك .

ــ أتبكين يا شريفة ؟ أنا لا أفهم شيئا . . تكلمى . أريحى قلبى .

ــ لا أحب أن أكذب عليك يا صالح سأبوح لك بسرى . خطبنى زميل من زملائى الذين كانوا يعملون معى فى المحل واتفق مع أمى على أن يعقد علىّ ليلة ازفاف ودفع لأمى المهر . كان يمر علىّ فى الصباح ونذهب معا الى العمل ، وكنا فى الليل نتجول فى المدينة نحلم بمستقبلنا المشرق الذى ينتظرنا ، وما كنا نعلم أن الزمن يخفى لنا فى غيبه مأساة ، فقد مرض خطيبى ومات بعد أن نال منى . . كل شىء . . كل شىء .

والتفتت بعينين زائغتـــين تبللهما الدموع الى حيث كانت السيارات مقبلة . . لا أحب أن أكذب عليك يا صالح . كانت حياتك كلها يا شريفة كذبة متصلة . . الموت أحب الىّ مما يدعونى اليه . . لماذا تأخرت ؟ لماذا تأخرت يا صالح ؟ . لو أنك جئت قبل أن يطردنى ذلك الوغد من دكانه وقبل أن ينهشنى الوحش النتن فى دكانه لما قاسيت ما قاسيت ، ولكنك جئت بعد الأوان ، بعد أن ضاع ما تبحث عنـــه .

وقصف صوت صالح فى خيالها كقصف الرعد :

ــ عشت منذ عرفتك أحلم بيدى وهى موضوعة فى يد موكلك ،

واصغى الى صـــوته وهو يقـــول : زوجتك موكلتى شريفة البكر الرشيده . . لا . . لا أستطيع أن أتصور . . لا أستطيع أبدا . .

وأغلقت اشارة المرور ووقفت السيارات ، وبقيت شريفة فى مكانها لا تتحرك . خيل اليها أن النور الأحمر السنة نيران تتراقص لتلسع قلبها وتشوى كبدها . وهمس صوت ضميرها فى أغوار نفسها : « ليتك يا صالح عرفت الحقيقة .. جسدى ولغت فيه الذئاب أما قلبى فلم ينفذ اليه أحد سواك . لم أعرف طعم الحب قبل أن ألقاك ، ملكت كل حواسى ومشاعرى وان لم يلمس لحمك لحمى . . كنت أتمنى أن أجود بروحى فى سبيل أن أصون عرضك . . كنت مغفلا يوم جئت . . وكنت مغفلا يوم ذهبت بعد أن مزقت قلبى وقلبك » . .

واحست الأرض تميد تحت قدميها ، ورأت من خلال الغشاوة التى بدأت تنسدل على عينها السيارات تتراقص ، وتماسكت وراحت تقاوم ارادة جسدها أن ينقض ليستريح .

ودنت أمها منها متهالكة متخاذلة وهى تهمس : « كنت فاكراكى يا رجليه شايله بطنى ، أتاريكى يا بطنى اللى شايله رجليه » .

وملأت صورة العم سليمان رأس شريفة ، وتذكرت ما قاله لها قبل أن تقطع كل صلة بينها وبينه : « أنا فى الخدمة دائما يا ست شريفة ، أنا لا أنسى أبدا أصدقائى » .

ولفت الأم ذراعها حول وسط ابنتها ولفت شريفة ذراعها حول امها ، وقفلتا عائدتين تجران أرجلهما جرا وتتحاملان على أنفسهما حتى لا تقع احداهما على الأخرى من اثر الجوع .

الغيب

كنت وصاحباى نجتمع صباح كل يوم جمعة فى الكازينو ، وكان صاحباى من الشباب الذين تستهويهم النظريات الحديثة فكان كل منهما يعكف طوال الأسبوع على قراءة داروين وفرويد وماركس أو على بعض ما كتب عنهم ، حتى اذا ما حان موعد اجتماعنا راح كل منهم يردد ما قرأ فى حماس كأنه شريط تسجيل دون أن يحاول أن يفكر فيما قرأ أو يقلب الرأى فيه . وكان كل منهما يحاول أن يسيطر علينا بعلمه وهو فى قمة النشوة ، يحسب أن أحدا لم يسبقه لقراءة تلك الفلسفات المادية . وقد كان يخيل الى أحيانا أنهما أشبه بشاب يافع قد بلغ الحلم فظن أن أحدا من العالمين لم يستشعر مثل ما استشعر به . كنت أصغى اليهما وما كنت أحب أن أناقشهما أو أجادلهما فما كان ما يرددان من آراء جديدا على ، كنت قد قرأته محايدا وأخذت فيه قرارا وانتهى الأمر .

وجاء الجرسون وطلب صاحباى بيرة وطلبت « اسباتس » فسخرا منى سخرية خفيفة ، فرأيت أن ابلعها حتى لا أعكر جو الجلسة ، ورحنا نخوض فى الأدب والأدباء فأنكرا كل الكتاب المصريين والعرب أمعانا فى الترفع . وليوهمانى أنهما « السوبرمان » الذى كان يحلم به نيشته أو أنهما من رجال المدن الفاضلة ..

وقبل أن يؤذن المؤذن لصلاة الجمعة استأذنت منهم ، وما ان قضيت الصلاة حتى عدت اليهما فلما رأيانى قال أحدهما فى انفعال :

ـــ كيف يؤمن مثقف مثلك بالغيب والغيبيات ؟

وقال الآخر ساخرا :

ـــ والأدهى من ذلك أنه يؤمن بالاحلام .

ورأيت ألا أبتلع هذه السخريات فقلت لهما :

ـــ فلنتجادل بالتى هى احسن . انكما شربتما البـــيرة فلم انهركما ولم أفكر فى أن أنهاكما وتركت لكما حرية الشراب وان كانت رائحة البيرة تضايقنى ، فلماذا غضبتما لأننى ذهبت للصلاة ؟ من منا أوسع أفقا ؟ لعلكما تجدان فى الشراب نشوة وأنا أجد فى صلاتى نشوة ، فلماذا تحاولان أن تحجرا على حريتى وان تحرمانى نشوة أسعد بها وينشرح لها صدرى . من منا المتزمت المتحجر ؟ تركت لكما حرية الخطيئة فلماذا تحاولان أن تدفعانى بعيدا عن طريق الأمن والسلام .

ـــ اننا نريدك أن تصحو ، أن تفيق من الوهم الذى تعيش فيه .

ـــ آسف أن أقول لكما انكما لا تزيدان عن ببغاوات وان أشرطة التسجيل أنفع منكما وأصدق . انكم تتحمســـون لما تقرءون دون تفكير ، فما تقرءون يسلبكم حرية التفكير بل يجعلكم عبيدا لما تقرءون . تحدثتما فى الصباح عن النشأة الأولى وعن التطور والارتقاء وعن الحلقة المفقودة وكلام كثير لا يصمد طويلا لأى تفكير هادىء سليم . ان الدين لا ينكر التطور : « ما لكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا » ولكن الدين والمنطق السليم ينكران أن الأصل خلية حية تطورت حتى صارت بشرا سويا . فلو سلمنا بذلك

التطور فهل النتيجة النهائية لكل ذلك ذكر أم أنثى ؟ فلو كانت النتيجة ذكرا فلابد من تطور آخر تكون نتيجته أنثى حتى تبدأ الحياة .

ولو حدث مثل ذلك التطور الثنائى لكان أكبر دليل على تدبير عاقل ، وعلى وجود مدبر حكيم . وما دمنا قد وصلنا الى المدبر الحكيم فالخلق أقرب الى المنطق والعقل من التطور والى افتراض وجود حلقة مفقودة . وعيب النظريات المادية كلها أنها تقوم على افتراضات خاطئة منهارة ، فكيف تكون النتائج سليمة اذا كانت الافتراضات غير سليمة ؟

يا صاحبى الكازينو سمعتكما كلما خضنا فى موضوع حيرنا قلتما : أيهما وجد أولا البيضة أم الدجاجة ؟ فلنفكر فى هدوء قليلا — ان كنا كبد الحقيقة نريد — انى أسألكما : هل اذا باضت دجاجة ليس معها ديك ، هل يمكن أن تفقس مثل هذه الدجاجة كتكوتا ؟ .

— لا ، لا بد أن يكون بالبيضة التى تفقس « كسر » ديك .

— اذن لابد من ديك ودجاجة حتى تبيض الدجاجة بيضة صالحة للفقس .

— هذا لا شك فيه .

— فلماذا تسألون دائما : « مين اللى اتوجد الأول الفرخه واللا البيضه » ؟ أتعرفان لما ترددان ذلك ؟ لأنكما اعتدتما أن تتلقيا كل ما يأتينا من الغرب دون تمحيص . لو فكرنا بعقول حرة لاهتدينا الى أن كثيرا مما يأتينا من عندهم ليس له الا البريق .

يا صاحبى الكازينو لابد من دجاجة وديك لتأتى بيضة صالحة للفقس والتفريخ ، فالدجاجة والديك أسبق من البيضة لو كنتم تفكرون .

يا صاحبى الكازينو بقيت النقطة الأخيرة ، النقطة الأخيرة

التى اثارت كل هذا الجدل ، الغيب وايمانى بالغيب . واقول الحق انكما مغروران ، فنتائج المعامل المذهلة أدارت رأسيكما ، فاسمحا لى أن أناقشكما الآخر مرة فى هدوء . قولا لى : اذا قربنا سلكا سالبا من سلك كهربائى موجب ، فماذا يتولد ؟

ـــ كهرباء .

ـــ ما هى الكهرباء ؟

فصمت صاحباى فقلت لهما :

ـــ غيب .

وعدت أسأل :

ـــ اذا قربنا مغناطيسا من مسمار فماذا يحدث ؟

ـــ ينجذب المسمار الى المغناطيس .

ـــ فما هى المغناطيسية ؟

ولم يحر صاحباى جوابا فقلت :

ـــ غيب .

ثم قلت لهما :

ـــ اذا وضعنا حامضا على معدن ما فماذا يحدث ؟

ـــ تفاعل .

ـــ فما هو التفاعل ؟ غيب .

كنا نتصور أن الموجات الصوتية او الضوئية تسبح فى الأثير ، ثم جاء اينشتين واثبت أن ليس هناك أثير . لقد كان الأثير غيبا بالنسبة لنا قبل اينشتين وأصبح فراغا بعد اينشتين . ان الانسان

قد فتت الذرة ، مرة تكون نتيجة التفتيت شعاعا ومرة تكون حرارة . كل ذلك عيب ولا شيء غير الغيب . اللهم الا نتائج وظواهر يفتنها استخدامنا لها ونحسب من فرط جهلنا وغرورنا أن الغيب قد أسفر عن وجهه .

ان المعمل لم يثبت الا حقيقة واحدة هى الغيب . وكل حكمة الحكماء وعلومهم ان هى الا آراء بشرية ناقصة وظنون لا تبلغ من عالم الغيب الا انه موجود مجهول .

يا صاحبى الكازينو كلنا ســـواء ، المؤمن بالغيب والمؤمن بالمعمل ليس أمامنا الا حقيقة واحدة أن نؤمن بالغيب .

ونظر أحد الصديقين الى ساعته وقال :

ــ حان وقت الانصراف .

فانصرفنا ورحت أتذكر قول برجسون :

ــ ان البصيرة بصر باطنى للعقل الذى أغلق عن عمد كل أبواب الحس الخارجى ما استطاع الى ذلك سبيلا .

ورحت أتذكر أيضا ما ورد فى أسفار اليوباتشاد : « اننا لا ندرك روح العالم بالتحصيل .. اننا لا نبلغه بالنبوغ والاطلاع على الكتب .. فليطرح البرهمى العلم وليعد طفلا ». لا يبحثن البرهمى عن كلمات كثيرة ، فما هى الا عناء يشقى اللسان ، فنفاذ الرأى الى جوهر الأمر أعلى درجات الفهم .

وراحت ابتهالات البراهمة ترن فى أعماقى :

ــ ايه يا روح العالم غير المجسدة ، يا جوهر العالم الواحد الشامل ، يأيها المحتوى لكل شيء ، الكامن فى كل شيء ، يا من لا

تدركه الحواس ، يا حقيقة الحقيقة ، يأيها الروح الذى لم يولد والذى لا يحق عليه الموت أو الفناء » .

ونظرت حولى أملأ نفسى بروعة الكون ، فاذا بى اشعر بفرح فياض واهيم الأذوب فى ملك الله ، وهتفت كل خلجة من خلجاتى :

ـــ ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك .

فاجرة

ـ ١ ـ

سارت فردوس فى الغرفة الواسعة وهى تحمل بطانية رمادية من الصوف ، واتجهت الى الأريكة التى كانت تعدها لتكون سريرا للوافد الجديد ، وطوت البطانية ووضعتها فى عناية فوق طرف الأريكة الخالى فقد كان فى الطرف الآخر وسادة صغيرة ، وأسدلت على الجميع مفرشا أبيض راحت تمرر يدها عليه لتبسط ثنياته .

واتجهت الى الكنسول وراحت تجره ، واذا بزوجها يدخل ويقول لها :

ـ ماذا تفعلين ؟

ـ اقرب الكنسول من الفراش ، ليضع كتبه وادواته فى أدراجه ويستعمله مكتبا .. ليس عندنا مكتب .

ـ ولماذا لم تناديني لأساعدك ؟

ـ لم اشأ أن اتعبك .

فقال وهو يرمقها فى ود :

ـ تعبك راحة .

وشمر أكمام جلبابه واسرع اليها يعاونها .

كانت فردوس فى الخامسة والعشرين قمحية اللون واسعة العينين يلمع سوادهما لمعانا أخاذا وبياضهما ناصعا ، وأنفها متناسبا وشفتاها رقيقتين منطبقتين على فم أشبه بجرح دقيق تتجمع دماؤه لتتفجر ، وغار طابع الحسن فى ذقنها ، وشعرها فى لون الفحم يبدو فيه الفرق الأبيض كشريط من العاج مد فى وسط مخمل أسود ، وغطى مؤخر رأسها منديل ابيض تدلت من حواشيه احجبة صغيرة شغلت من خيوط فى لون العقيق ، ونبعت من تحت المنديل ضفيرة غزيرة طالت حتى لمس طرفها أعلى جزء فى عجزها .

وكانت ترتدى ثوبا فضفاضا ناصع البياض أقرب الى جلباب الرجال ولكنه عجز عن أن يكتم سر الجسد الذى يحويه ، فالثديان المتلئان يهتزان فى رعونة كلما اقبلت أو ادبرت ، والأرداف تتكور كلما مالت تلتقط شيئا أو انثنت على السرير او الأرائك أو المقاعد تعيد تنسيقها ، أما الخصر النحيل والبطن الذى لم يعرف الحمل فقد كان يفضحهما ضمها لحشـــية كبيرة بين ذراعيها ورفعها على صدرها ، فالثوب يشد حول الجسد شدا ويكشف سحره .

وكان سويلم يخطو نحو الستين ، طويل القامة محدودب الظهر قليلا ، جاف الوجه مضعضع العينين تبعثرت فى ذقنه بعض شعرات بيض . يرتدى جلبابا من الصوف وان لم يكن الشتاء قد أقبل ، ويضع على رأسه طاقية من الصوف .

ووضعا الكنسول بالقرب من الأريكة وأخذت فردوس تنظف مرآته بأوراق صحيفة ، ووقف سويلم يتطلع اليها بعينين راضيتين وقال :

ـــ اهو ابن خالتك ؟

فقالت فردوس وهى مستمرة فى عملها وصدرها يترجرج :

ـــ أمه ابنة خالتى .
وصمت قليلا ثم قال :
ـــ كم سنه ؟
ـــ والله لا أدرى .. آخر مرة رأيته فيها كان طفلا صغيرا .
فغمغم :
ـــ طفل صغير ؟ !
ثم قال فى صوت فيه دهش :
ـــ وماذا نفعل لو بكى ليلا وطلب العودة الى أمه ؟
فضحكت فردوس ضحكة ناعمة وقالت :
ـــ تحمله على كتفك وتذهب به الى أمه ..
فقال فى فزع :
ـــ أخرج فى برد الليل ؟ والله لو بكى ..
ولم تدعه يتم حديثه بل قالت وهى تضحك :
ـــ اطمئن فلن يبكى ، كانت آخر مرة رأيته فيها من تسع سنوات .. بعد زواجنا بسنة . كان لم يذهب الى كتاب القرية بعد ، وقالت لى أمه : لما يأخذ الابتدائية سأبعث به اليك فى البندر ليدخل مدرسة الصنائع .

كنت احسبها تمزح فقلت لها مجاملة : سأضعه فى عينى .. ولم تنس ما دار بيننا ، ذكرته فى رسالتها كلمة كلمة كأنما نقش فى راسها .

ورفعت فردوس كرسيا من الخيزران فى يدها ووضعته تحت حلقة تدلت من السقف ، ثم خرجت من الغرفة .. وما لبثت أن عادت تحمل مصباحا كبيرا يأتلق معدنه وتشمخ زجاجته ، ودفعت بالمصباح الى زوجها ووقفت على الكرسى ، ومدت يدها وقالت :
ـــ هات .

فناول لها وهو يمد يده بالمصباح :

ـــ خذى . . يأخذ عدوك .

وشبت على أطراف أصابعها وهى تضع المصباح فى الحلقة ، فشد جسمها وانحسر الثوب قليلا عن ساقها الممتلئة ، فمد سويلم يده وراح يمررها على ساقها فى حنان ، فرنت اليه فى دلال وقالت فى خبث :

ـــ أقع .

وضحكت ضحكة طويلة منغمة كلها نداء ، فابتسم سويلم فى مرارة . وقفزت فردوس فى خفة وارتمت فى صدره ، فوضع شفتيه على خدها وطبع قبلة باردة أحست قشعريرتها فى روحها .

وارتفع رنين جرس « كرتة » فأسرعت فردوس الى الشباك ونظرت ، ثم التفتت الى زوجها وقالت :

ـــ عرفة حضر .

وعادت الى زوجها مهرولة ، وأخذته من يده وانطلقا لاستقبال الوافد الجديد .

وقفا عند رأس السلم يترقبان . . كأن سويلم يحس بعض الضيق فقد ألف حياته وما كان يحب أن يعتورها التغيير ، أما فردوس فقد كانت تستشعر رغبة فى استكناه طلعة الطفل الذى لم تره منذ تسع سنين .

وراح عرفة يصعد فى الدرج وهو مطرق الرأس يعلق فى ذراعه صرة بها ثيابه ، ويحمل فى يده الأخرى حقيبة عتيقة من الجلد الأصفر اسودت أطرافها من العرق . وأحس أن هناك من يرقبه عند رأس السلم فنظر دون أن يرفع رأسه ، فألفى سويلم وفردوس ينتظرانه فخفق قلبه فى شدة واضطراب ، وأخذ يصعد متمهلا لعل القلق الذى نزل به يهدأ ولعل أنفاسه تنتظم .

ورنا نهما ماذا بهما يتطلعان اليه وقد فغرا أفواههما ولاح الدهش في أعينهما .. كان فتى مكتمل النمو عريض الكتفين قوى الساعد ، وانشرح صدر فردوس ورفت على شفتيها بسمة عريضة بينما زاد انقباض سويلم ، ولم تفلح الفرحة التى لاحت بين شفتيه فى أن تخفى عبوسه .

ووصل اليهما وعيناه حائرتان بينهما ، وفتح فمه ليلقى عليهما تحية ولكن حبس صوته فارتبك ، فأسرعت فردوس تقول وهى تمد له يدها :

ــ أهلا وسهلا .. شرفتنا .

والتفتت الى زوجها وقالت ويدها لا تزال قابضة على يد الفتى :

ــ عمك سويلم .

وأرخت يدها القابضة على يده فمد يده ومال ليقبل يد الشيخ الممدودة لمصافحته ! ولكن الشيخ سحبها بعيدا عن الفم المزموم .

وساروا جميعا ليدخلوا الشقة وقد تباينت مشاعرهم ، فردوس تختلس النظر الى الفتى فى سعادة ، وسويلم يرمقه فى برم ، وهو سائر كالمذهول ينكر نفسه .

ودخلوا الغرفة التى أعدت له ، وقالت فردوس وهى تفسح له الطريق :

ــ تفضل .

وتقدم وحده وجعل يتلفت فى ارتباك ، ووقعت عيناه على الكنسول فاتجه اليه ليضع الصرة والحقيبة فوقه ، والتقت عيون الزوجين فهمست فردوس :

ــ والله لو بكى فى الليل فلن يحمله على كتفه أحد غيرك .

ورنت فى المكان ضحكتها المفعمة الزاخرة بالنداء .

— ٣ —

سرى فى سكون الليل صياح ديك واذا بصيحات الديوك تتجاوب من كل مكان ، وتسللت خيوط فى لون الرصاص من خصاص الشباك تجاهد لتزحزح الظلام الثقيل الجاثم على أنفاس حجرة نوم الزوجين ، وهتك الصمت وقع أقدام فى الطريق وأصوات عجلات عربة مقبلة من بعيد .

وراحت الخيوط الرصاصية تتحول الى خيوط من الفضة ، فبدت أعمدة السرير النحاسية الصفراء الشامخة كأعمــدة من الابريز ، وتقلب ستويلم فى الفراش وتمطى ، ثم أزاح الغطاء عنه ونهض ليذهب الى دورة المياه يتوضأ .

والقى نظرة على فردوس النائمة الى جواره فألفى ساقها قد تعرت ، فمد يده وسحب الغطاء فوقها وسار وما ان ان غادر الغرفة حتى دفعت فردوس الغطاء عنها بقدمها ورفعت ساقيها الى أعلى فانحسرت ثيابها عن فخذيها ، ودارت فى السرير نصف دورة ، وبحركة رشيقة كانت منتصبة على قدميها ، وانطلقت الى غرفة عرفة وفتحت الباب فألفت عرفة جالسا على الأريكة التى أعدت لنومه ، فقالت له :

— يسعد صباحك .

— يسعد صباحك .

وناولت من خلف الباب قصبة من الغاب مجوفة ، وتقدمت

حتى وقفت تحت المصباح ووضعت طرف القصبة فى الفتحة المجوفة بقعر المصباح ونفخت فى القصبة ، فانطفأ النور الخافت الذى كان يتراقص كأنما يترنح قبل أن يلفظ أنفاسه .

وذهبت الى الكرسى الخيزران ، وفطن عرفة الى ما ستفعله فقد رآها مرارا تقوم به ، فكان أسرع منها الى الكرسى وحمله بيده ووضعت تحت المصباح ، ثم وقف فوقه ليتناول المصباح من الحلقة المدلاة من السقف . ودنت فردوس منه ورفعت رأسها ترمقه وفى عينيها غبطة وفى صدرها نشوة ؛ باتت تستشعر مشاعر جديدة مذ جاء الى البيت . . تدسست فى روحها يقظة بعد طول هجوع . . كادت الشيخوخة المبكرة تنجح فى اسدال استرة كثيفة على قلبها الشاب ، فاذا بوفوده يهتك الأسجاف ويجعل القلب يرفرف فى انطلاق . وكادت كنوز قلبها تغور واذا به يفجر المكنون فتتفتح مهجتها تفتح الزهر للندى ، وترف أحاسيسها رفة أنفاس السحر ، ويترقرق فى جوفها حنان دفاق ، وتدب فى أوصالها حياة حلوة عذبة لها طعم حبيب مشتهى لم تذقه من قبل . . مذ عرفت كيف تتذوق الحياة .

حرمت الأمومة سنوات فكبتت احاسيسها الرقيقة ، فلما جاء وجدت مشاعرها المذخورة المكنونة متنفسا . آه لو كان أصغر قليلا مما هو لأجلسته على فخذها وضمته الى صدرها وجعلت تعبث بأصابعها فى شعره ، وطفقت تلثمه دون حرج هنا وهناك .

وهبط عرفة والمصباح فى يده ، وتحرك لينطلق به الى المطبخ بممر بالحاز فاعترضت طريقه ، ومدت يدها تتناول منه المصباح وعيناها على شفتيه تراودها فكرة أن تتقدم خطوة وتقبله ، ولكنها وأدت وسوسة النفس وأخذت عيناها تطرفان فى اضطراب على الرغم من البسمة التى رفت على شفتيها .

ودارت على عقبيها وانصرفت وقلبها يخفق فى حنان ، وقد انتشرت فى جوفها رهبة لذيذة لها نشوة استكانت لها وأخذت تغذيها بالأفكار ، راحت تجتر ذكريات يوم الجمعة . عرفة فى غرفته لم يغادرها ولكنها تلمحه فى غدوها ورواحها .. سويلم فى البيت ممددا على كنبة فى استرخاء . موعد صلاة الجمعة يقترب .. الزوج يطلب منها أن تعد الحمام .. موقد الجاز يطن .. البخار يتصاعد من الصفيحة الموضوعة فوق الموقد .. الزوج يدخل الحمام وعلى كتفه بشكير ابيض .. ترتفع طرقات الزوج على باب الحمام .. تفتح الباب فى حرص لتدخل مسرعة قبل أن يدخل الهواء البارد .. تلتقى عيناها بعينى عرفة وهى تنسل الى الحمام .. يغض عرفه من بصره حياء .. يشرق وجهها بالابتسام .

انها تدلك ظهر الشيخ المقرور بالليفة والصابون فى شدة ، انتقلت الحياة المتدفقة فى جوفها الى ساعدها فتأوه الرجل وصاح فيها أن ترفق به ، ولكنها ظلت تدلكه فى حرارة فأمرها أن تكف قبل أن تدق عظامه . وضحكت ضحكتها المنغمة الزاخرة بالنداء ، وخرجت وأثر الصابون فى يديها فأخذت تجففهما وهى ترنو الى عرفة منتشية .

وذهب الزوج لصلاة الجمعة ، وذهبت الى عرفة تدعوه للاستحمام ، وأغلق باب الحمام خلفه وانطلقت لبعض شأنها .. ولكن سرعان ما وجدت نفسها منجذبة الى الحمام ، وطفقت تغدو وتروح أمامه وأنفاسها تتلاحق . نبتت فى أغوارها مشاعر كثيرة متباينة لا تدرى كنهها ، كانت مزيجا من الأمومة والرغبة والرهبة والاشتهاء ، ومس أذنيها صوت ارتطام الكوز بالصفيحة فجفلت مفزوعة ، ولكن ما لبثت أن عادت صاعدة هابطة أمام باب الحمام .

آه لو كان أصغر قليلا لفتحت الباب ودخلت تغسل له رأسه وصدره وذراعيه وفخذيه وساقيه وقدميه ، وتصب عليه الماء صبا .. انها لا تذكر أنها قامت بغسل جسم غلام وانها تحس الساعة أنها حرمت من لذة .

وهمس فى صدرها هامس يسألها عما تفعله اذا دق الباب وطلب منها أن تدلك له ظهره ، ولم تجب عن السؤال ولكن سرت فى جبينها مشاعر لذيذة مغلفة بغشاء رقيق من الخشية .

وتحركت أكرة باب الحمام فهرولت مبتعدة كأنما خشيت أن يراها قريبة من الباب فيفطن الى ما دار فى خلدها ، وخرج يرتدى جلبابا مخططا مفتوح الصدر فقالت له :

— نعيما .

— أنعم الله عليك .

واعترضت طريقه ، ومدت يدها تزرر له الأزرار المفتوحة وهى تقول :

— زرر صدرك الدنيا برد .. وانت خارج من الحمام .

ولفحت أنفاسه الحارة وجهها فتلكأت فى عملها تنعم بالخدر اللذيذ الذى سرى فى كيانها ، ولمحت قطرة ماء على جبينه فمسحتها بكفها فى حنان .

واستأنف سيره الى غرفته وذهبت الى الحمام تغسل له ثيابه ، كان الغسيل بغيضا الى نفسها ، ولكنها لم تستشعر ذلك الضيق الذى كانت تحسه كلما جلست الى طست الغسيل ، بل كانت تغنى فى نشوة .

وأفاقت من الأحلام اللذيذة الدائرة فى رأسها على وقع اقدام خلفها ، فالتفتت فوجدت عرفة مقبلا ، فرمقته فى استفسار فقال لها :

ـــ اساعدك ؟
ـــ لا . . استرح أنت .

★ ★ ★

وفى الصباح رآها واقفة فى المطبخ امام موقد الغاز فقال لها :
ـــ ماذا تفعلين ؟
ـــ انى أعد الافطار .
فذهب ووضع الطبلية ، وعاد الى المطبخ يحمل ما أعدته .

وتحلقوا الطبلية ، فردوس وسويلم قد جلسا جنبا الى جنبه وجلس عرفة أمامهما ، وأخذو يتناولون طعامهم وهم يتحدثون أحاديث شتى لا ينتظمها سلك ولا يربط بينها رابط .

وتحركت فردوس لتريح رجلها فانحسر ثوبها عن فخذها ، ووقعت عينا عرفة على الفخذ العارية فأدام النظر ، ولمح الشيخ اتجاه العيون الخائنة فلكز فردوس بمرفقه وقال بصوت فيه رنة غضب :
ـــ غطى رجلك .

وارتبك عرفة وأسبل عينيه ، ودق قلبه فى شدة وتدفقت دماء الخجل فى وجهه فاحمر ، ومد يدا متخاذلة الى الطعام وأعادها الى فمه ، ولكنه لم يستغ ما يأكله فجعل يلوكه فى فتور .

وأحست فردوس ما يكابده الفتى فأشفقت عليه وضاقت بما فعل زوجها ، وهمت بأن تقول شيئا ترفه به عن عرفة ولكنها خشيت أن تفتح بابا قد يؤدى الى جرح شعوره فلاذت بالصمت .
وبعد عرفة عن الطبلية فقالت له فردوس :
ـــ كل .
ـــ الحمد لله .
ونهض ليحمل كتبه ويتسلل الى مدرسته .

- ٣ -

دق جرس المدرسة ايذانا بالانصراف ، فخف التلاميذ الى ملعب الكرة من كل فج واصواتهم عالية وضحكاتهم مجلجلة ، فقد ذهبوا ليشاهدوا المباراة التى ستقام بين فريق مدرستهم وفريق المدرسة الثانوية .

وانسل عرفة من رفاقه وانساب مسرعا صوب الباب ، وقابله أحد زملائه وهو يحمل بوق فونوغراف يهتف فيه مشجعا مدرسته ومحيي اللاعبين الأصدقاء ، وخلفه ثلة من التلاميذ يتصايحون ، فرفت على شفتى عرفة بسمة ، وانطلق فى طريقه دون أن يلوى عنقه ، فقد أصبح يتعجل ساعات الدراسة ليعود الى البيت . بات يجد سعادة غامرة فى الحديث الى فردوس والاصغاء اليها ومشاركتها فيما تفعل ، والتمتع بدعاباتها .

ووضع المثلث الكبير وبعض أدواته تحت ابطه وراح يضرب فى الطريق المنساب بين الحقول .. وقد خلف وراءه أشجار الجازورين العالية التى تحد مدرسته ، وامتدت على جانبى الطريق خضرة تباينت ألوانها وأشكالها وثمارها ، الخبيزة كأنها دوائر من مخمل أخضر ، وأوراق الترمس كأنها من رسم فنان سريالى لا تماثل فيها ولا تجانس ، والطماطم كأنها جواهر انسدلت عليها أوشحة خضراء تخفيها عن العيون .

وبلغ طريق المدينة المرصوف فضرب الأرض بقدمه فى قوة مرات متتابعات ليزيل الغبار العالق بحذائه ، ثم استأنف سيره ووسع من خطوه ، وجعل يتملى فى اهتمام العربات « والكارتات » والدراجات التى تحمل على جانبيها أقساط اللبن ، القادمة من اليمين ومن اليسار على السواء .

ودلف الى حارة جانبية ليتجنب المرور على مغلق خشب الشيخ سويلم ، فقد مر عليه مرة وحياه فأبقاه معه حتى عادا الى البيت معا بعد صلاة المغرب ، ومن ذلك اليوم تحاشى أن يمر عليه عند عودته حتى لا يحرم من الذ ساعات النهار .

وبلغ الدار وصعد فى الدرج وثبا ، ونقر الباب بأصبعه نقرات خفيفة فأسرعت فردوس وفتحته ، ولما وقعت عيناها عليه قالت :

ـ أهلا بالباشمهندس .

ومدت يدها تحمل المثلث الكبير والأدوات الموضوعة تحت ابطه ، وسارا جنبا الى جنب الى غرفته يلمس كتفها كتفه مرة ، ويحتك ذراعه بذراعها مرات ، وتأتلق العيون ببريق أخاذ .

ووضعت المثلث والأدوات على الكنسول ، ولمحت لوحة بيضاء عليها خطوط رسمت بحبر أسود فتفرست فى الرسم برهة دون أن تفهم شيئا ، فقالت وهى تتطلع الى صورة عرفة المنعكسة فى المرآة :

ـ ما هذا ؟

فقال وهو يدنو منها :

ـ رسم لعمل ابريق .

ووقف خلفها واخذ يتطلع الى الرسم من فوق كتفها وهى تعاود النظر لعلها ترى ابريقا ، ولكنها لم تر الا دائرة وخطوطا ، فرفعت رأسها وقالت وهى تنظر الى المرآة :

ـــ أين الابريق ؟

ومد ذراعه من خلفها وجعل يمرر أصبعه على الخطوط وهو يقول فى اعتداد الأستاذ :

ـــ هذه دائرة قاع الابريق ، واذا قص هذا الخط وهذا الخط وقرطسنا الورقة ولصقنا هذا الطرف بذلك الطرف تكون جسم الابريق .

ـــ وما هذه الخطوط ؟

ـــ زخرفة فى الابريق .

فقالت وهى ترنو اليه بطرف عينها :

ـــ . « أبريق الحنبلى كل ما يفرغ يمتلى » .

وضحكت ضحكتها المنغمة الزاخرة بالنداء ، ورنت اليه رنوة طويلة وابتسمت بسمة خبيثة ، ومالت قليلا في دلال حتى مس ظهرها صدره فأحس خدرا لذيذا ، والدماء الحارة تتدفق في عروقه وتمهد خديه .

ودارت فى خفة دورة كاملة فأصبح صدرها أمام صدره . وقالت وهى تعبث فى أزرار قميصه :

ـــ هل بعثت بك أمك الى هنا لتصبح سمكريا ؟

وتعلقت عيناها بشفتيه ، لم تكن تنتظر جوابا بل كانت نفسها تغريها أن تلف ذراعيها حوله وأن تضمه اليها وأن تضع شفتيها على شفتيه ، وقال فى صوت مضطرب تخنقه انفعالاته :

ـــ هذه تمرينات . . نبدأ بالبسيط ثم نتدرج ، اننا ندرس هندسة السيارات فى السنة الأخيرة .

وظلت عواطفها الثائرة تعربد فى أغوارها فمدت يدها وربتت على خده ، ثم انصرفت مسرعة لتفر بنفسها من نفسها .

وراح عرفة يخلع ثياب المدرسة وارتدى جلبابه المخطط . وجلس على حافة الأريكة ومد يده وتناول كتابا وفتحه ، وحاول أن يقرأ فيه ولكنه كان شارد الذهن يحس رغبة فى أن يذهب الى فردوس يعاونها فيما تفعله ويسعد بقربها .

ونحى الكتاب جانبا وقام ليذهب الى المطبخ فقد وصل الى سمعه طنين موقد الغاز وفطن الى أنها بدأت فى الطبخ ، ووقف بجسمه يسد باب المطبخ ونظر فألفاها تنتقى الأرز فى غطاء الحلة ، فقال لها :

— و أنا ماذا أفعل ؟

فقالت دون أن ترفع رأسها :

— قشر البصل وخرطه .

وتحرك ، وقبل أن يصل الى البصل قالت له :

— قلب الحلة .

فاتجه الى الحلة الموضوعة على النار وراح يقلب الخبيزة فى الماء المغلى ، واستمر فى التقليب حتى أمرته أن يكف .

وراح يقشر البصل وهو يبعد وجهه عنه ، ولكن رائحته النفاذة تسللت الى خياشيمه وحركت دموعه ، ولمحته وهى تتجه الى الحلة الموضوعة على النار فابتسمت .

وقلبت الحلة فى مصفاة تحتها وعاء ، وأخذت تدلك الخبيزة بيدها لتصفيها وهى تنظر اليه ، وبدأ فى تخريط البصل فسالت الدموع غزيرة من عينيه ، فضحكت ضحكتها الممدودة الناعمة وقالت :

— دع البصل وتعال صف الخبيزة .

فقال فى مكابرة :

ــ سأنتهى من البصل وأصفى الخبيزة .

ومدت يدها النظيفة تجفف له دموعه بطرف جلبابه .

وانتهى من تخريط البصل فمد يده يدلك الخبيزة معها فى المصفاة ، وارتطمت يده بيدها أكثر من مرة ، والتصق رأسه برأسها واختلطت الأنفاس وساد صمت قلق ، كان كل منهما ينعم بمشاعره ويقاوم الثورة المتأججة فى نفسه ، ويخشى أن يرفع رأسه حتى لا تفضح العيون ما تطويه الجوانح .

ومر الوقت دون أن ينبس أحدهما بكلمة ، هى تتظاهر بالانشغال بالحلة الموضوعة على النار وهو الى جوارها يتطلع الى ما تفعل كأنما يريد أن يعى درسا ، كانت عيناه تتسللان من جيب صدرها ليكشفا سره .

وقال عرفة وقد أشرق وجهه :

ــ عرفت كيف تطبخ الخبيزة .

فقالت فردوس وهى تدير رأسها وتنظر فى عينيه :

ــ ستصبح باشطباخ قبل أن تصبح باشمهندس .

وضحكت ولكزته بمرفقها فى صدره فى خفة ، فابتسم وتقدم خطوة وفى جوفه اغراء بأن يضع يده على كتفها .

وتمدت محبس موقد الجاز فخبت النار حتى خمدت ، ولكن النار التى كانت ترعى فى أحشائها ظلت تتلظى ، وتحركت ووضعت جردلا تحت الصنبور وراحت تملؤه ماء فراح عرفة يشمر عن ساعديه ، فقالت له :

ــ ماذا ستفعل ؟

ــ سأمسح الشقة .

ــ لا ، اذهب وذاكر .

ـــ والله لن يمسحها اليوم أحد غيرى .

ومد يده وحمل الجردل ، وقبل أن يتحرك قالت له :

ـــ انتظر . ارفع جلبابك حتى لا يبتل .

وقبل أن يضع الجردل على الأرض مالت وتناولت طرف جلبابه ورفعته وراحت تشده فى قوة حول وسطه وتثبت بعضه فى بعض ، فصار الجلباب من تحت وسطه طبقتين ، وتعرت ساقاه ولاح فيهما زغب خفيف من الشعر .

وانثنى وبين يديه خيشة المسح ، وأخذ يمررها على البلاط فى سرعة وهو يتقهقر ، وكاد يرتطم بفردوس فضربته بكفها على كفله وقالت :

ـــ حاذر .

ونظر اليها من بين ساقيه المفتوحتين وابتسم ، فضحكت فردوس ضحكة طليقة مرحة جلجلت فى المكان حتى غطت على صوت المفتاح الذى دار فى باب الشقة الخارجى .

وسكت ضحكتها مسامع الشيخ سنويلم فتقدم على أطراف أصابعه ونظر ، فألفى عرفة منهمكا فى المسح وزوجته قد علقت طرف ثوبها بأصبعها حتى لا يبتل ، وراحت تقول :

ـــ عرفة ! كفى وسطك انحل .

وتنحنح الشيخ فدارت فردوس بنصفها الأعلى ونظرت ، وظل عرفة قابضا على الخيشة وان راح ينظر من طرف عينه ، وقالت فردوس :

ـــ بسم الله الرحمن الرحيم ، من أين دخلت ؟

فقال الشيخ سنويلم وهو سائر فى طريقه الى غرفته :

ـــ من الباب .

ورمى عرفة بنظرة نمت عن ضيقه ، وزاد فى مرارته لما رأى

ساعدي الفتي المفتولتين . كان ينفس عليه شبابه ويغار من فتوته في أغواره ، وان لم يكن يعى حقيقة مشاعره ، ودخل غرفته وفردوس خلفه ، وأحس رغبة في تفريغها ولكنه كبح عواطفه .. خشي ان يستسلم لثورته فيبالغ في ايلامها وهو لا يحب أن يمزق قلبها ، فهو يهواها ويهيم بها حبا على الرغم مما يبدو منها من رعونة أحيانا .

ووطن النفس على الصمت حتى تهدأ نفسه ويخبو شره ويختلي بها في الليل ، فيفضى اليها بما يريد أن يقوله وهو يداعبها .

ومدت فردوس يدها تعاونه على خلع ثيابه وقالت :

ــ أحضر العشاء ؟ الخبيزة ساخنة .

ــ هيا .

وخرجت وبقى وحده يفكر ، وراح يمرر يده على جبهته ليمسح المشاهد البغيضة المتنافرة التى نبتت واختلطت في رأسه .. عرفة وهو يختلس النظر الى فخذ زوجته العارية .. وبائعات الهوى جالسات أمام حوانيتهن ، فقد كان لفظ « الخبيزة » الذى كان يطلق على حيهن كفيلا باقامة الحى في ذهنه نابضا بالحياة وان كان قد اندثر من سنين بعيدة .

وتململ وراح يغدو ويروح في قلق ، وارتفع صوت فردوس يدعوه للعشاء :

ــ تفضل .

وانطلق مهرولا ليغر... ، وجلس الى الطبلية وهو يمد يده الى طبق الخبيزة ، ولكنه توقف قليلا وتفرس في وجه عرفة ثم التفت الى زوجه ، فلما تيقن من أن فخذها ليست عارية بدأ يأكل .

وانتهوا من طعامهم ، وانسل عرفة الى غرفته ليستذكر

دروسه ، واغلق الزوجان باب غرفتهما عليهما .

تمددا فى السرير ، وأحكم سويلم الغطاء عليه وشرد ببصره قليلا ثم قال :

ــ انى أفكر فى عرفة ، لماذا يتجشـم أهله ارسـاله الى المدرسة ؟ لماذا يحرمون أنفسهم من معاونته ؟

فقالت فردوس فى حماسة :

ــ ليضمنوا له مستقبلا أفضل . بعض سنوات من الصبر تزيد فائدته .

ــ انهم سيخسرونه الى الأبد .. لو أبقوه معهم وزوجوه لضمنوا نفعه .

فقالت فردوس فى انكار :

ــ عرفة يتزوج ؟ ! انه لا يزال طفلا .

فقال سويلم وقد لوى شفته السفلى :

ــ تزوجت أول ما تزوجت فى مثل سنه .

فقالت فردوس فى سخرية :

ــ ولماذا كانت العجلة ؟

ولم ينطن الى سخريتها ، وشرد يجتر ذكريات شبابه فى نشوة ، (وقد آثر أن يطوى حقده على عرفة بين جوانحه) بينما رن صوت فردوس فى أعماقها وان لم تتحرك شفتاها يقول :

ــ يا وكسه ! أخذتك لحما وتركتك لى عظما ، مصتك مصا وجئتنى جافا ، آه لو تزوجتنى وأنت فى الخامسة عشرة !

وتدفقت دماؤها الحارة فى عروقها واشتعلت النـار فى جسدها ، فوضعت شفتيها الملتهبتين على شفتيه ولكنهما كانتا كجثة هامدة .

— ٤ —

عاد فى العصر مسرعا كعادته ليعاون فردوس ويعيش معها أسعد لحظات يومه ، وراح ينقر الباب بأصبعه نقرا خفيفا ، ولم تخف فردوس كعادتها بل ظل الباب موصدا مدة ، ومس أذنيه صوت هرولتها فى قدومها فتأهبت حواسه لاستقبالها .. خفقان لذيذ فى القلب ، نشوة مدغدغة فى الصدر ، بريق خاطف فى العين ، لسان رطب يمر على الشفتين .

وفتح الباب ولم تنبس فردوس بكلمة ، كان جبينهـــا يلمع وحاجباها مزججين ، وخدها متوردا من أثر النتف ، وكانت يدها خلف ظهرها تخفى شيئا ، ففطن الى أن الحلوى لا تزال بين أصابعها ، فرفت على شفتيه بسمة وزاد تألق عينيه ، ورنت اليه فردوس رنوة كلها خبث ، ثم هرولت الى غرفتها وواربت بابها .

ودخل غرفته ووضع كتبه وخلع ثيابه ، وجلس على الأريكة ، ولكنه لم يستطع أن يستقر فنهض وسار حتى دنا من غرفتها ، ومد بصره محاولا ن يرى ما يجرى هناك من فرجة الباب وهو يستشعر قلقا مشتهى ، ورغبة جامحة ، ومشاعر رقراقة تعربد بى جوانحه .
كان يعرف حقيقة ما يجرى خلف الباب ، فقد كان وهو غلام يرقب ما تفعله النسوة بالحلوى فى اهتمام ، حتى أن كل تفاصيل العملية حفرت فى ذهنه .

وعجز عن أن يكشف شيئا ، ولكنه رأى بعين خياله فردوس وهى شبه عارية ، وقد اضطجعت وراحت تزيل الشعر من كل مكان ينبت فيه من جسمها ، فتدفقت الدماء حارة فى عروقه ، وراودته أفكار ثائرة راحت تحرضه على أن يقتحم الباب وأن يطفىء النار المشبوبة فى أحشائه ، ولكنه كبح جماح نفسه جاهدا وعاد الى غرفته وهو فى شدة الانفعال ، والقى بجسمه على الأريكة وأخذ ينظر الى عروق السقف وهو ساهم ، وشرد بذهنه فاذا به يجد نفسه وهو غلام لا يتجاوز السادسة من عمره يلعب فى القاعة الى جوار أمه ، وفاطمة جارتهم الشابة المخطوبة التى تنتظر انتهاء موسم القطن لتزف الى زوجها تقبل وتقول انها وحدها وقد ضاقت بوحدتها ، وتلتمس من أمه أن تسمح له بالبقاء معها لمؤانستها حتى يقبل أحد من اهلها الذين ذهبوا الى الغيط .

ورأى أمه وهى تطلب منه أن يذهب فى نبرات راضية ، كانت سعيدة بذهابه لتتخلص من شقاوته أو لتبعده حتى تستطيع أن تفعل فى حرية ما تتحرج من أن تفعله أمامه ، ورأى نفسه وهو ينهض متثاقلا فهو يحب أن يكون الى جوار أمه دواما لا يفارقها .

وأخذته فاطمة من يده وهى تداعبه ، واتجها الى دارها التى تبعد عن دارهم بضع خطوات ، ودخلا الى القاعة وأغلقت فاطمة الباب خلفها ، وسارت به حتى أوغلت فى القاعة ثم جلست فى الظلام وجذبته من يده وضمته الى صدرها وراحت تقبله .

فطن على الرغم من صغره الى أن قبلاتها تختلف عن قبلات أمه ، فقبلاتها حارة وأنفاسها التى ترتطم برجهه أكثر دفئا وسرعة ، وصدرها فى ارتفاع وانخفاض ، ويدها تضغط عليه فى قوة وانفعال .

وطلبت منه أن يلف ذراعيه حولها وأن يضمها ففعل ، واستشعر احساسا غريبا لما التصق صدره النحيل بصدرها الممتلىء ، وسكنت الراحة فى فؤاده فاستكان لها وتركها تفعل به ما تشاء ، وهو سعيد غاية السعادة بما تفعل .

واستلقت على الأرض وذراعيها حوله ، وجعلت تأتى أفعالا لم يشهدها من قبل ، وهو يتلقى كل ما تفعل مفتوح الاحساس ، يكتسب تجارب جديدة قبل الأوان .. واستمر لحظات يحس احساس النائم الذى يعيش فى رؤيا بهيجة .

وراح الوقت يمر وهو بين يديها ، يلبى رغباتها دون أن يجفل أو تمشى فى أوصاله رعدة .. كان سعيدا بالدنيا الجديدة التى تتهتك أستارها أمام عينيه المبهورتين .

وتركته بعد أن عرف أشياء لا يعرفها أغلب شباب القرية الا ليلة الزفاف .

وصار يتردد عليها فى كل وقت تخلو فيه دارها من أهلها ، وما أكثر ما كانوا يتركونها وحدها ، وكان يمضى أغلب الوقت معها فى دعابة ولعب وعناق ، وأصبح يتبعها ككلب أمين لا يفارقها .

وكرت الأيام وهو سعيد بالعوالم الجديدة التى راح يجوس خلالها ، وجاء يوم زفافها فحملوها الى دار زوجها وهو واقف ينظر ، يحس احساس الطفل المدلل الذى سلبوه دميته .

وغابت فاطمة من حياته ، ونسيها ولكنه لم ينس الدرس الذى لقنته ، فصارت لعبة (العروسة والعريس) هى اللعبة المفضلة عنده ، راح يجمع غلمان القرية الذين فى مثل سنه ويجمع الفتيات الصغار ويخطب من بينهن عروسا لنفسه ، ثم يقوم الأولاد بالطبل والزمر والرقص واطلاق الزغاريد بينا يأخذ هو عروسه ويختلى

بها فى ركن من بيت أو مكان مهجور ، ويأخذ فى ممارسة ما علمته فاطمة .

وراح يستعرض فى ذهنه فتيات القرية اللاتى لعب معهن لعبته المفضلة ، كن فتيات صغيرات غريرات بين يدى خبير مجرب ، وان لم يتجاوز السادسة .

ويقفز بذهنه السنين ليفر من صور الصغيرات اللاتى لم تعد صورهن تثير فى نفسه شهوة ، ورأى حقلا ممتدا يبدو فى ضوء القمر كأنما أريق على نباته ذوب من الفضة ، وهو يلعب فيه مع بعض الرفاق من الأولاد والبنات « الاستغماية » . كان على اعتاب الثانية عشرة وكان يتعمد أن يختفى مع فتاة نامية فى الجرن أو خلف الساقية ، وكان يطول اختفاؤهما ، يحاول أن يجر الفتاة الى ما كان يجر اليه الصغيرات الغريرات ولكنه يخفق فيكتفى بالضم والقبل .

وسرعان ما تزوجت الفتاة ، وقابلها بعد زواجها فى خلوة فأسرع اليها يقبلها ، فقالت له وهى ترنو اليه من طرف عينيها :

ــ اننا لا نقبل الآن .

وحسب يومها أنها تحذره من الاقتراب منها ، ولم يفطن الا الساعة وهو يتململ فى الأريكة ، الى أنها كانت تدعوه الى ما يشتهيه ، فيدير وجهه ويمد بصره الى الباب الذى يخفى خلفه فردوس شبه عارية .

ونهض متوتر الأعصاب مرهف الاحساس ، تجرى الدماء الحارة فى عروقه وتهجس فى نفسه هواجس تستبد به وتدفعه دفعا الى حيث تختفى فردوس ، فيسير مسلوب الارادة حتى

اذا ما دنا من الباب يستيقظ فجأة ، ويشتد وجيب قلبه وتسمره رهبة عارمة فى مكانه ، ويتلفت حوله وهو زائغ البصر .

ومس أذنيه صوت مفتاح يدور فى الباب فانخلع قلبه وطارت نفسه شعاعا ، وفر مرعوبا الى غرفته وهو يزفر فى صوت مسموع ، فزاد اضطرابه خشية أن يصل زفيره الى مسامع الشيخ القادم فيفطن الى مشاعره الخبيثة التى تطفح بها نفسه .

ودخل الشيخ سويلم وهو يتلفت فى ريبة ، فلما وقعت عيناه على عرفة وألفاه فى غرفته وحده أثلج صدره ، وسار الى غرفته وهو يضرب الأرض بقدميه ويتنحنح ليوهم فردوس أنه على عهده لم تنبت فى نفسه بذور الشك ، وانه سليم القلب نقى السريرة .

ودخل الشيخ غرفته ، واشرأب عرفة بعنقه ليرى بعينيه ما رآه بخياله ، ولكن الشيخ أوصد الباب خلفه فى رفق ، ومرت لحظات انطلقت بعدها ضحكة فردوس المنغمة الطويلة الزاخرة بالنداء . فأرهفت حواس عرفة جميعا ، واستيقظت فتوته فراح يغدو ويروح فى الغرفة وقد اتسعت عيناه ، يبلل شفتيه بلسانه .

وخرج الشيخ من الغرفة مسرعا وفردوس تشيعه بضحكاتها ، وذهب الى حيث كان عرفة فاذا بجميع مشاعر عرفة تموت فجأة ، ولم يبق الا نبض يتردد برهبة خفيفة ، تركت أثرا فى العيون المفتوحة .

وأخذ الشيخ يجاذب الفتى الحديث فى ود يسأله عن المدرسة وعما يفعله فيها ، وعرفة يرد ردودا مقتضبة وهو مطرق . وتحدث الشيخ طويلا ورفع عرفة عينيه ينظر اليه فوقع بصره على خيط رفيع من الحلوى على خده ، فتيقن أن فردوس كانت تداعبه بالحلوى

ففر منها ، وهمت بسمة بأن تولد فى قلبه واذا بغول الغيرة يتحرك ويبتلع البسمة ويأخذ فى نهش جوفه ، فيطأطىء رأسه أسفا وتنتشر مرارة نفسه حتى يكاد يتذوقها بفمه .

وخرجت فردوس من غرفتها وانطلقت الى المطبخ ، وظلت فى غدو ورواح لا يجرؤ عرفة على أن يخف اليها يعاونها وان كان يشتهى ذلك فى أعماقه ، ولا يلوى الشيخ عنقه ليراها خشية أن تلتقى عيناه بعينيها فيضحك برغمه ، وهو لا يحب أن يظهر أمام الصبى عابثا .

كان الشيخ يحب فردوس من كل قلبه ويتمنى أن يشبع كل رغباتها ، ولكنه كان على ثقة من أنه ليس كفئا لها ، فبينهما هوة من السنين سحيقة تعيب علاقاتهما بالفتور ، لذلك كان يسرف فى العطف والخضوع ويتحمل نزواتها راضيا لعل ذلك كله يعوض ما لا يملكه .

وجاءت فردوس ووقفت عند الباب وقالت :

ــ تفضلا .

وتحرك الشيخ والشاب خلفه ، ومر الشيخ بفردوس وهو يغض من بصره ويكتم بسمة ولدت طلائعها على شفتيه ، ومر عرفة بها وراح يتفرس فى وجهها الذى اشتدت حمرته من أثر الحلوى فاذا بمشاعره تتيقظ ، وبقلق شهى يتحرك فى جوفه ، وبرغبة عارمة تمور بين جوانحه وتسرى فى بدنه رعدة محمومة ، فقد ارتبطت الحلوى فى ذهنه بتصورات تثير شهواته .

وجلسوا حول الطبلية وقد أسبل كل منهم عينيه .. لم يكن

أحدهم ليقدر أن تلتقى عيناه بعيون الآخرين ففى رأس كل منهم فكرة يحرص على أن تظل سرا مكنونا .

وراح عرفة يأكل فى فتور ، وسرعان ما غادر الطبلية وانطلق الى غرفته وفتح كتابا وأخذ يقرأ فيه ، ولكنه لم يفقه مما يقرأ شيئا . . كان مشغولا عن كل ما حوله بالأفكار المعربدة فى رأسه .

ودخل الزوجان غرفتهما وأوصدا بابها ، فنحى عرفة الكتاب وألقى به على الكنسول وتمدد فى فراشه وأرخى لخياله عنانه ، فرأى نفسه فى الدار فى القرية وقد نام مع أمه وأبيه وأخوته فى غرفة واحدة . كان يغمض عينيه وينام ملء جفنيه قبل أن يعرف فاطمة ، ولكنه بعد أن عرفها وعرف ما بين الرجل والمرأة كان يتظاهر بالنوم ويحاول أن يظل صاحيا ليرى ما يفعل والداه ، ولكن ظلام الغرفة كان ثقيلا وكان النوم يغلبه قبل أن يحس شيئا .

وراح يتململ فى فراشه وصورة فاطمة حاضرة فى ذهنه ، يتمثل ما كانا يفعلان فيزداد انفعاله وتزداد ثورة نفسه ، ومر الليل فى تصورات ولم ينم الا غرارا .

— ٥ —

كان الليل يرخى أستاره ، والهدوء شاملا لا يعكره الا نقيق الضفادع ونباح كلب بعيد ، ونسيم الربيع يحمل اريج الحقول .. وراحت فردوس تتقلب فى الفراش وتغطى وجهها بذراعها وهى مسبلة جفونها .. كانت تخشى أن تفتحهما فيفر النوم من عينيها .

وأخذت مشاعر الحب والحنين تنبثق فى أغوارها واندلعت نار الصبابة فى حناياها ، واستشعرت رغبة مستبدة تمور بين ضلوعها فتقلبت على جنبها بحيث أصبح وجهها ناحية الشيخ الذى كان يغط فى نومه ، ولفت ذراعها حوله وضمته فى قوة لتسكت الصراخ المنبعث من كل مشاعرها ، وظل الشيخ فى سباته لا يحس النار المتأججة فى الجسد الصادى الذى يهفو الى اطفاء الظمأ .

وفكرت فى أن تهز سويلم وأن تتعمد أن ترتطم به فى تقلبها حتى يطير النوم من عينيه ، ولكنها وأدت الفكرة بعد أن ضاقت بها .. كانت واثقة أنه حتى لو استيقظ واستجاب لدعاباتها فلن يهدىء عواطفها المشبوبة ، بل سيزيد أوارها ويزيد فى ضيقها .

وراحت تزفر حمم صدرها وتحاول أن تغرى النوم ليداعب جفنيها ، ولكن احساساتها المتوترة كانت تطرد الكرى ، وتجلب الى ذهنها أخيلة توقظ مشاعرها وتثير وجدها .

وسرى فى الجو مواء قطة ، وراح المواء يتردد ويمتد حتى صار أشبه بالأنين . كان مشحونا بدعوة صارخة للجنس ، فازدادت مشاعر فردوس ارهافا وتضخمت رغباتها حتى ملأت جوانحها ، وأحست كأن أبخرة من الاشتهاء تضغط صدرها حتى تكاد تكتم

أنفاسها فلم تستطع أن تظل راقدة ، بل جلست فى سريرها مبهورة النفس .

وراحت تتلفت حولها فألفت الكون كله يستشعر اقبال الربيع الا ذلك الجسد الفانى الملقى الى جوارها تتردد فيه الأنفاس كما تتردد فى منفاخ ، فضاقت به وتحركت فى أعماقها مشاعر البغض والكراهية .

وولدت فى رأسها فكرة أن تذهب الى غرفة عرفة تصلح وضع الغطاء عليه ، لعل حركتها تقتل ثورة عواطفها . واستراحت للفكرة فنحت الغطاء عنها وهبطت من السرير فى خفة ، ووقفت تصلح ثوبها ثم سارت على أطراف أصابعها حتى لا يستيقظ زوجها .

وخفق قلبها بين جوانحها وانتشرت مشاعر من القلق اللذيذ فى حناياها ، وانطلقت مسحورة تقودها عواطفها فقد صار رأسها هواء . ودلفت الى الغرفة الغارقة فى الصمت التى لا يقوى على تبديد ظلامها النور الخافت المنبعث من المصباح المعلق فى المطبخ ، فطافت بها احساسات غاية فى الرقة ما كان يعكرها الا ذلك الخوف الواهن الذى لا تدرى له سببا .

وتقدمت كالطيف الى حيث يرقد عرفة ووقفت تنظر اليه وقد سرت فيها رعدة ، وجعلت تتطلع الى وجهه طويلا ومشاعر كثيرة تتفجر فى جوفها وأفكار غير واضحة بدأت تبذر بذورها فى رأسها .

ووقعت عيناها على الغطاء الملقى على الأرض فمالت وتناولته وراحت تبسطه على الفتى النائم ، ودنا وجهها من وجهه فاذا بأنفاسها الحارة تختلط بأنفاسه ، واذا بيدها ترفع وتأخذ فى المرور على رأسه فى حنان دافق .

وثبتت نظراتها على شفتيه ، فاشتد وجيب قلبها وجرى الدم حارا فى عروقها ، ومشى خدر لذيذ فى أوصالها وطافت بها غيبوبة .

ووضعت شفتيها على شفتيه وأخذت تقبله وهى ترتجف ،

وهتك السكون مواء القطة المشحون بالنداء فانهارت جدر حصونها التداعية ، ولفت ذراعيها حوله وطفقت تضمه اليها فى جنون ..

واستيقظ عرفة على الضم والقبل فأخذ لحظة ، ولكن سرعان ما أفاق من اثر المفاجأة وراح يندمج فى الجو الذى وجد نفسه فيه بغتة ، فلف ذراعيه حولها وجعل ضغطهما يشتد عليها كلما زادت حرارة مشاعره الفتية التى تثيرها أقل مداعبة .

ولفهما صمت لم يكن يعكره الا الأنفاس الملتهبة والهمسات المكتومة ، وصوت نشيج خافت ، وطفرت الدموع من عينى فردوس . لم تكن دموع الندم على الخطيئة التى تمارسها ولا على الشرف المدنس ، بل كانت دموعا تنفس عن النشوة المتفجرة فى غزارة فى أغوارها والسعادة المعربدة فى كل خلجة من خلجات نفسها .

ومر الوقت وهما غائبان عن الوجود ، انفصلا عن كل شيء الا عن أنفسهما بل زاد احساسهما بذاتهما ، وخبت النار المتلظية فى الجوانح فانسلت فردوس وعادت وهى تسير على أطراف أصابعها وتصلح شعرها بيديها .

واندست فى الفراش ونظرت الى الشيخ الفانى الذى يغط فى نومه ، فلم تتحرك مشاعر الاشمئزاز التى كانت تتحرك كلما قامت فى الليل وهى تتلوى من الظمأ وهو هادىء ساكن لا يستشعر ما تكابده من مشاعرها الثائرة .

ومدت يدها ورفعت الغطاء عليه وأحكمته حوله ، ثم تمددت وقد وضعت رأسها على كفيها وشردت تفكر فى اللحظات المترعة بالمتعة التى مرت بها ، فلم تختلج فيها خلجة ندم بل كانت تستشعر سعادة طاغية ، وتمنى النفس بحياة كلها لذة .

وارتسم على محياها رضا ، كانت تحس زهوا أنها انتقمت من المجتمع الذى ظلمها يوم قدمها ضحية الى ذلك الشيخ الذى لا يقدر عليها .

ومشى الفتور فى جفنيها فنامت ملء عينيها وهى تشهق وتزفر فى انتظام ينم عن راحة تامة ، ورفت على شفتيها بسمة خفيفة تطوف دائما بالغارق فى حلم بهيج .

وأشرقت الشمس وهى فى نومها العميق ، وراح سويلم يغدو ويروح فى الغرفة وهو يتطلع اليها فى استغراب فما كانت تنام من قبل حتى هذه الساعة . اعتادت أن تستيقظ معه فى الفجر تعد له القهوة وتلبى طلباته .

وتقلبت فى تكاسل وتمطت وفتحت عينيها فى فتور ، فلما وقعتا على سويلم ابتسمت وقالت :

ـــ صباح الخير .

فقال وهو يرنو اليها فى ريبة :

ـــ نوم العوافى ! عينى باردة عليك .

فرفست الغطاء بقدمها ورفعت رجلها الى أعلى ، ثم قفزت من السرير فى حركة رشيقة وأصبحت منتصبة على الأرض أمامه . وأحست فى أعماقها أن عليها أن تفسر أسباب السعادة التى تشع من عينيها والتى تستشعرها فى كل حركة من حركاتها ، فنظرت الى زوجها فى خبث وقالت :

ـــ حلمت بالأمس أنك . .

ووضعت فمها على أذنه وهمست بكلمة ، ثم ضحكت ضحكتها الممدودة الزاخرة بالنداء . . وتحركت سعيدة ، وقبل أن تغادر الغرفة التفتت وقالت :

ـــ أعد الافطار الآن أم بعد أن أستحم ؟

وقال فى صوت خافت :

ـــ لا داعى للعجلة ، نفطر بعد أن تستحمى .

وسرت فى صدره غيره لم يدر لها سببا .

— ٦ —

وصار سمويلم يرقبها بعين ملؤها الريبة ، فقد أحس فى أعماقه أنها تبدلت بعد اقبال عرفة ، وأصبحت امرأة أخرى أكثر فتنة وأشد رقة وعذوبة .

بات كلما نظر اليها ورأى إزدياد تورد وجنتيها وتفتح نفسها وسريان حياة جديدة فى أوصالها ، يستشعر بالغيرة تلسع روحه وبالضيق يقبض صدره ، وبمرارة تعصف بكيانه ، وبحسرة قاتلة تكاد تكتم أنفاسه .

انها تتودد اليه توددا زاد على ما ألفه منها ، وكثر تقبيلها له ، ولكن قبلاتها تبدلت وصار لها طعم آخر . لم تعد قبلات محمومة يحس حرارتها فى روحه وان عجز عن أن يستجيب لها ، ولا قبلات مجاملة ، ولكنها قبلات فيها رضا المرتوى وفرحة السعيد .

كان يرى تحت عينيها مولد تعاسة أخفقت ضحكاتها المنطلقة الزاخرة بالنداء فى أن تخفيها ، بل كانت تشعلها وتزيدها ضراما ، وقد اجتثت تلك التعاسة ونبتت مكانها سعادة عارمة كدرت صفو حياته ، فقد كانت توسوس فى نفسه باتهامات بشعة تزلزل أرجاءه . وتثير فى روحه كوامن الكراهية والبغض والغيرة .

وبذر فى صدره الواهن قلق ، لم يعد يستطيع أن يستقر هادئا فى دكانه ، كانت فكرة خبيثة تقرع رأسه فجاءة ، وصورة مقيتة تجمع بين زوجه وعرفة تحتل خياله فيفزع ويعود الى البيت مهرولا محموما ، ويضع المفتاح فى الباب ويديره فى حرص ويتقدم على

أطراف أصابعه فيجدهما معا فى المطبخ أو فى غرفة الصبى ، ولكنه لا يرى ما يشفى غليله فيضطر الى أن ينتحل عذرا لعودته المفاجئة ثم ينصرف وهو حائر لا يعرف له شاطئا ، تعبث به أنواء نفسه وتلعب به أمواج مشاعره المتقلبة العنيفة .

وأحس بها ذات ليلة وهى عائدة من غرفة الصبى ، فاشتد اضطرابه وربا قلقه وخفق قلبه فى عنف ، فانتصب جالسا فى سريره وقال فى صوت متهدج نم عن انفعالات نفسه :

— أين كنت ؟

فلم تجفل ولم تضطرب ولم تقل انها كانت تقضى حاجة ، بل قالت فى هدوء :

— كنت فى غرفة عرفة أحكم الغطاء عليه .

وصعدت الى جوار زوجها المنفعل وقبلته قبلة هادئة ، ثم تمددت فى فراشها وسرعان ما مشى الوسن الى أجفانها ، وراحت أنفاسها تتردد فى اطمئنان وظل هو يرمقها فى قلق يراوده شك قاتل ، وخطرت له فكرة أن يضغط على عنقها الجميل بيديه ويكتم أنفاسها ، ومال نحوها واذا به يطبع على خدها قبلة .

كان يحبها من كل قلبه ، وكان فى قرارة نفسه يحس أنه عاجز عن اطفاء ظمئها فكان لا يبخل عليها بشىء يملكه ويبالغ فى ارضائها لعله يعوضها عما لا يستطيع أن يمدها به ، فكان يغفر لها بعض نزواتها ، واذا ما فعلت ما يثير غيرته انفعل مدة ، وراح خلالها يجهد نفسه فى ايجاد المبررات التى تشفع لها عنده ، ويستمر فى اقناع ذاته المتمردة حتى ترضى وتنقشع السحب المتلبدة فى صدره .

كان هانئا قبل ورود ذلك الصبى ، ولكن صفو حياته تكدر بعد أن جاء عرفة الى البيت وأصبح موضع اهتمام فردوس ، فقد أصبح

يقاسى وخز مشاعره ولسع سخريته من نفسه لغيرته من غلام أصغر أولاده أكبر منه !

وعاد بعد الغروب كما اعتاد أن يعود كل يوم وقد وطن العزم على أن يطرق الباب وأن ينتظر حتى تفتح له زوجه ، ففى هـــذا ايحاء بالثقة فى نفسه وفى زوجته ، ولكن ما ان بلغ الباب حتى أخرج المفتاح وأداره فى الباب فى حرص شديد ، ودخل على أطراف أصابعه يتلفت .

كانت فردوس فى غرفة عرفة والصبى ممدود فى فراشه وهى تميل فوقه فى حب وتمرر يدها على جبهته فى حنان . انقبض قلبه وأحس كأن يدا قوية تهصره هصرا ، ومطرقة هائلة تدق رأسه ، وظلمة من الحنق تنسدل على ذاته فتعمى وعيه ، فيتقدم مسلوب الارادة كل ما يحسه رغبة جارفة تغريه بالبطش بهما .

وشعرت فردوس به فلم تجفل ولم ترفع يدها عن جبهة الفتى ، بل زادت دنوا منه وميلا عليه وقالت فى هدوء :

ـــ سويلم ، ناولنى ليمونة من المطبخ .

ووقف سويلم ينظر مشدوها دون أنَ ينبس بكلمة . كان غضبه قد بلغ نهايته وكان نفســـه يتردد متتابعا فى صـــدره ، وقالت فردوس :

ـــ عرفة محموم ، أظن انه سار مدة فى الشمس .

وسرعان ما تبخرت مخاوف سويلم وصفا جوفه وسلم قلبه ، فقال ناصحا :

ـــ صبى فى أذنيه ماء وملحا .

فقالت فردوس وهى ترفع عرفة بين يديها وتصلح الوسادة تحت رأسه .

ـــ آتنى به .

وذهب الشيخ الى المطبخ يذيب الملح فى الماء ، ومالت فردوس على الصبى تقبله وتضمه الى صدرها .

وعاد الشيخ بكوب ماء أذيب فيه ملح ، ومدت فردوس يدها لتأخذ منه الكوب ولكنه تقدم وراح يصب الماء فى أذنى الفتى ، ولما انتهى من عمله التفت الى فردوس وقال :

ـــ من الأفضل أن نتركه وحده يستريح .

وسار وهو يحسب أن زوجه ستتبعه ولكن فردوس بقيت الى جوار الفتى تزيد حرارته ارتفاعا بقبلاتها .

ودخل سويلم غرفته وأخذ يخلع ثيابه وحده وهو يستشعر ضيقا ، وتريث ولكن فردوس لم تقبل فنادى :

ـــ فردوس .. فردوس .

فأقبلت متبرمة وقالت :

ـــ ماذا تريد ؟

فقال وهو يشيح بوجهه عنها حتى لا ترى الكدر فى عينيه :

ـــ أعدى العشاء .

وذهبت الى المطبخ وسرعان ما كان الطعام معدا ، وعادت الى زوجها وقالت :

ـــ العشاء عندك .

وهمت بالانصراف فقال لها :

ـــ ألا تأكلين ؟

ـــ كل انت .

وانطلقت الى غرفة عرفة ، وجلس الزوج يتناول طعامة وهو

يتلفت ، بحس كراهية لذلك الفتى الذى سلبه زوجته وجعله يأكل لأول مرة وحده .

وقام الشيخ ولم يسغ طعامه ، ودخل غرفته وجلس ينتظر عودة فردوس ولكنها ظلت الى جوار الفتى تمرضه ، فضاق صدره ونفد صبره ونادى فى انفعال :

— فردوس .. فردوس .

واتجهت فردوس اليه وهى ضيقة بندائه ، ووقفت امامه وقالت فى استخفاف :

— نعم !

فقال غاضبا :

— نريد أن ننام .

فقالت وهى ترفع الغطاء عن السرير :

— السرير أمامك .

فاتسعت عيناه الضيقتان وقال فى انكار :

— وأنت ؟

— كيف أتركه وحده وهو مريض ؟ !

فقال فى فزع :

— أتقضين الليل فى حجرته ؟

فقالت فى هدوء وهى تبتسم :

— وماذا فى ذلك ؟ !

— وأين تنامين ؟

— على الأرض بجوار فراشه ، حتى اذا احتاج الى شىء لبيت نداءه .

فقال الشيخ فى انفعال :

ـــ لا ! لن يكون شيء من ذلك . . ستنامين هنا في سريرك .

وأحست الثورة في نبراته فقالت وهي تدنو منه وتداعبه :

ـــ لا تحزن ، سأنام الى جوارك .

وأخذت في اعداد فراش على الأرض بالقرب من السرير ، فقال الشيخ في دهش :

ـــ ماذا تفعلين ؟

فقالت دون أن تلتفت اليه :

ـــ سينام معنا حتى لا أضطر الى أن أذهب اليه مرارا في الليل لأطمئن عليه .

فقال في ضيق :

ـــ ألا تتركينه وحده في غرفته ليستريح ؟ .

فقالت وهي تدنو منه وعيناها في عينيه :

ـــ انه مريض .

ومالت على الشيخ وطبعت على خده قبلة لم يرتح لهـــا بل حركت وساوسه ، بات يخشى ذلك العطف الذي تغمره به منذ قدم عرفة الى داره ، ومارت في جوفه انفعالات تنهش صدره ولكنه ظل مطرقا لا تتحرك شفتاه بكلمة .

وانطلقت الى عرفة وطلبت منه أن يقوم لينام معها ومع زوجها في غرفة واحدة ، ولكنه أبى فظلت توسوس له وتغريه حتى أطاعها وسار الى جوارها .

كانت حرارة عرفة مرتفعة قليلا ولكنه ما كان يحس توعكا . ولو تركته فردوس لعكف على استذكار دروســـه أو لنام ملء جفنيه .

ودلفت الى غرفة الزوجين فتظاهر بالاعياء حتى خيل للشيخ

أن الفتى ينوء ، وسندته فردوس بذراعها ومالت معه وهو يميل ليتمدد فى الفراش المبثوث على الأرض .

وراح الزوج يتلفت فى حيرة وقد ملأ الحنق صدره ، وتحرك حياؤه فتملكه خجل من أن ينام الى جوار زوجة وفتى غريب معهما فى غرفة واحدة .

وذهب الى المصباح وخفت ضوءه ، ولو طاوع نفسه لكتم أنفاسه وترك المكان فى ظلام دامس حتى لا يراه الفتى اذا التصق جسمه بجسم فردوس عفوا ، وحتى لا تقع عيناه على ساقيها اذا انحسر الغطاء عنهما .

وسار الشيخ نحو السرير وقد تقاصرت نفسه ، وصعد اليه فى حرص وخفة ، واخذ يتمدد هونا حتى لا يئن السرير ويبلغ أنينه مسامع الفتى الراقد على بعد أمتار منه .

ومدت فردوس يدها وتناولت قميص النوم فخفق قلب الشيخ فى شدة ، واستولى عليه هلع خشية أن تخلع ثوبها فى الغرفة وتقف نصف عارية تحت بصر ذلك الذى شاركه غرفة نومه رغم أنفه . وفكر سريعا فيما يفعله لو همت بخلع ثوبها دون أن يلفت نظر الفتى ، فقر رأيه على أن يقفز من سريره وأن يدفعها أمامه وهو يحجبها بجسمه عن الراقد على الأرض ويجرفها أمامه حتى تخرج من الغرفة .

وتحركت فردوس وقميص النوم فى يدها وغادرت المكان ، فزفر الشيخ فى راحة وان ظلت أعصابه متوترة ، ومرت لحظات من الصمت عادت بعدها فردوس وقد ارتدت قميص النوم وفى يدها ثوبها .

وعلقت الثوب فى المشجب وذهبت الى السرير وصعدت فيه

ونامت فى الطرف الذى يطل على عرفة النائم على الأرض ، وابتعد الشيخ عنها واستقر على الطرف الآخر .

وراح الوقت يمر ، وانتظم نفس الشيخ ثم راح يغط غطيطا ، فرفعت فردوس وسطها وجعلت تتفرس فى وجهه وتيقنت من نومه ، ولكنها أرادت أن تتأكد أنه راح فى سبات فهزته هزا خفيفا وأصلحت وضع رأسه على الوسادة ، فخفت شخيره وان ظل غارقا فى النوم .

ونحت الغطاء عنها فى خفة ، وانسلت من جواره كما تنسل الأفعى وعيناها لا تفارقان وجهه ، ثم رقدت على الأرض الى جوار عرفة وانسدل عليهما غطاء واحد .

— ٧ —

عاد سريلم الى البيت قبل أذان المغرب فقد احتلت فكرة اختلاء فردوس وعرفة والشيطان ، فأحس ضيقا وقلقا ووحشا قاسيا ينهش جوفه ، ولم يستطع أن يصبر على قسوة مشاعره فانطلق مفزوعا مكروب النفس الى الدار .

ووضع المفتاح فى حرص وأداره فى أناة ودقات قلبه تدوى فى أذنيه ، وفتح الباب وقبل أن يتقدم خطوة وقف مشدوها حائرا يفرك عينيه بظهر يده ليزيح الغشاوة التى انسدلت فجأة على عينيه ، خيل اليه أنه رأى فردوس وعرفة يبتعد أحدهما عن الآخر فى فزع ، وراح وهمه يؤكد له أن فمها كان على فمه ، ولكنه لم يكن واثقا من اتهام أوهامه فقد خانه بصره ، لم ير شيئا واضحا ، كل

ما أحسه حركة سريعة لا يدرى ان كانت حقيقـــة أو وهما من الأوهام .

ويتقدم خطوات وريبة قاتلة تستولى عليه ويدا قوية تهصر فؤاده . ومر بين فردوس وعرفة وهو عابس الوجه ، ولم يلق عليهما تحية ولم ينبس بكلمة وقد أسبل جفنيه على عينيه ، خشى أن يقع بصره على أحدهما فيفلت منه زمام نفسه ويتدفق السباب والاتهام من فمه دون وعى .

ويدخل غرفته وفردوس فى أثره ، وأحس الباب يغلق عليهما فربا قلقه . وزاد اضطرابه لما تقدمت فردوس منه وأخذت تعاونه على خلع ثيابه وهو يتحامى أن تلتقى عيناه بعينيها .

وجلس على مقعد قريب من السرير يفكر فى حقيقة مشاعره الثائرة بين جوانحه ، وهو يتطلع الى فردوس من بين أهدابه فيحيره ذلك الهدوء الذى يغشاها . وكادت النار المندلعة بين ضلوعه تخبو والهواجس التى تمور فى أغواره تسكن ، ولكن فردوس تقدمت منه وطوقته فى دلال وقبلته قبلة طويلة لم يستشعر حرارتها ولكنه أحسها سما زعافا يسرى فى بدنه .

وسرت فيه قشعريرة وهاجت وساوسه وتضخمت ريبته ، وزادت النار المشتعلة فى جوفه تأججا وراح هاتف من نفسه يؤكد له أن ما رآه حقيقة وقعت وليس وهما من الأوهام .

وأخذت فردوس تتحدث وتضحك ضحكتها المدودة الزاخرة بالنداء وهو لا يعى مما تقص شيئا ، فقد كان مستغرقا فى المشاعر المنبثقة فى أغواره مصغيا لوسوسات الاتهام .

وقالت فردوس :

ـــ سأعد العشاء .

وخرجت من الغـــرفة وهو غافل عنها ، وان كانت أفكاره

ومشاعره وخلجات نفسه وخفقات قلبه ركزت أضواءها عليها ، وراحت تحاول جاهدة أن تهتك الظلمة التى تغلفها لتبدو حقيقتها عارية بلا أستار .

ومر الوقت دون أن يشعر به ، كان فى شبه غيبوبة فقد فاضت مشاعره حتى غمرته وكاد يفقد الاحساس ، وأفاق على صوت فردوس وهى تقول :

ــ تفضل .

وقام صامتا وسار الى حيث وضعت الطبلية ، وقبل أن يجلس ارتفع صوت فردوس ينادى :

ــ عرفة .. عرفة .. تعال .

وخيل للشيخ أن فى صوتها رقة وأن له نغمة خاصة حانية وأنه زاخر بالانفعالات ، وأن نطق اسم الفتى نم عن مشاعر كثيرة كامنة فى أعماق النفس الغامضة ، فاضطرب الشيخ حنقا واستبد به الأسى .

والتفوا حول الطبلية وامتدت الأيدى الى الصحاف ، وساد الصمت وراح الشيخ يرصد حركات الزوجة والفتى من بين أهدابه المسبلة ، والتقت عينا فردوس بعينى عرفة أكثر من مرة .. كانت نظراتهما عابرة لا تفضح شيئا ، وتظاهر الشيخ بالانشغال عنهما بورك الدجاجة الذى كان يعالجه بيديه ، وانتهزت فردوس الفرصة ورمزت بعينها لعرفة فى خفة ، ولمح الشيخ ما فعلت فأحس كأن خنجرا سدد الى قلبه وتقيحت نفسه حتى خطر له أن يلقى بما فى يده فى وجهها ، وأن ينقض على الفتى ينشب أظافره فى صدره .

وراحت تفاحة آدم الناتئة فى عنقه تتحرك صاعدة هابطة .. كان يجاهد فى ابتلاع ريقه الذى جف ، وعافت نفسه الطعام فطفق ينظر زائغ البصر دون أن تتحرك يده .

وفطنت فردوس الى أنه لا يأكل فرمقته برهة ثم قالت :

ــ لماذا لا تأكل ؟

وأرادت أن تداعبه فقالت له :

ــ لعلك تزوجت وأكلت عند زوجتك الثانية !

وضحكت ضحكتها الممدودة الزاخرة بالنداء ، وابتسم عرفة وغض من بصره خشية أن تلتقى عيناه بعينى الشيخ ، وأحس الشيخ قهرا ولم تتحرك شفتاه وان كانت ألفاظ السباب القاذعة تتدفق مع أنفاسه دون أن تخرج من فمه .

وابتعد عن الطبلية ، وقالت زوجه وهى تشير الى صفحة بها عسل نحل :

ــ كل عسل .

ورن فى أغواره صوت ساخر يردد : « كل عسل مع الناس .. كل عسل مع الناس » ، فانتفض وانتصب واقفا ليطرد ذلك الصوت الذى يخزه وخزا قاسيا ويلهب روحه بسياط الاستهزاء ، وانطلق الى غرفته وطفق يغدو ويروح وهو يشهق ويزفر فى صوت مسموع .

وراح صوت هادىء يعيد على مسامعه قصة الشيخ الذى شكا اليه تلاميذه سوء سلوك زوجته الجميلة ، وظلوا يزينون له الانفصال عنها حتى طلقها وزوجوه امرأة شريفة دميمة . وجاءوا اليه بعد مدة يسألونه رأيه فى الزوجة الجديدة فقال لهم : كنت آكل عسلا مع الناس فأصبحت آكل الزفت وحدى . ورن فى أغوار سويلم الصوت الهازىء « كل عسل مع الناس » فثارت نفسه ، وأخذ يمرر يده على وجهه ليمسح المشاهد البشعة التى بدأت تتشكل فى ذهنه .

وأحس سويلم احتقارا لذلك الشيخ الذى سمح لنفسه ان

تعترف بأنه كان يأكل العسل مع الناس ؛ كيف رضى لنفسه هذا الهوان ؟ كيف رضى أن يمرغ شرفه فى الوحل فى يسر ؟ وراح يسب ذلك الشيخ ويلعنه كأنما كان واقفا أمامه ، وسرعان ما استشعر تقاصرا فقد خيل اليه أنه يسب نفسه .

وتلبدت ريبة وأوهامه فى صدره واشتدت نقمته قتاما ، فانهال فى خياله فردوس وعرفة ضربا ولطما وصفعا ، وأخذ يلتقط أنفاسه فى جهد كأنما يلتقطها من ثقب ابرة .

ودخلت فردوس الغرفة وأغلقت الباب خلفها ، واتجهت الى زوجها الذى كان يتحاشى أن تلتقى عيناه بعينيها وقالت :

— أنت مشغول البال الليلة ، فيم تفكر ؟

فقال دون أن يلتفت اليها :

— لن أقبل عرفة فى بيتى بعد هذه السنة .. لن اقبله أبدا .

وطارت نفس فردوس شعاعا وقالت فى خوف :

— لماذا ؟

— لأننى لا أطيق أن أرى رجلا غريبا فى بيتى .

فقالت فردوس وهى تجمع شتات أمرها :

— رجل ؟ .. غريب ؟ .. انه طفل .. تلميذ فى مدرسة ، وسيظل طفلا حتى يتم دراسته .

فقال سويلم فى انفعال :

— انه رجل ، ولو تزوج لأنجب أولادا .

فقالت فردوس فى تحد وقد أفاقت من المباغتة وملكت زمام عواطفها :

— وحتى اذا كان رجلا فسيظل فى بيتى ، انه قريبى ولن اقبل أن يقال اننى ضقت بقريبى وأوصدت بابى دونه .

ـــ وأنا لن أقبل أبداً أن يقال ان بابى مغلق على زوجتى ورجل غريب .

ـــ لا تقل « غريب » . انه قريبى .. ابن خالتى .

ـــ انه ليس ابن خالتك ، وحتى لو كان ابن خالتك ألا يحل لك ؟!

ـــ ولكننى فى عصمة رجل .

وأحس هوانا ، فما كان يثور هذه الثورة لو كان ما يزال شابا ولكنه شيخ ذابل جفت ينابيعه وهى ظمآنة . ان غيرته تزيد غضبه ضراما فقال فى انفعال :

ـــ لن يعود عرفة الى دارى بعد هذه السنة .. لن تطأ قدمه بيتى .. هذا قرارى .

فقالت فردوس وقد اتسعت عيناها :

ـــ اذا أصررت على ألا يعود فسأذهب معه .

ـــ ماذا تقولين ؟ تذهبين معه ؟ !

فقالت وهى تتظاهر بالانكسار :

ـــ نعم ، سأذهب معه حتى يعرف أهلى اننى غلبت على أمرى وأن هذه مشيئتك .

وضايقتها فكرة بعد عرفة عنها فأجهشت بالبكاء ، وقالت فى عبارات تخنقها العبرات :

ـــ لو كان قريبك ما فكرت فى طرده ، ولكنك تطـــرده لأنه قريبى ، لأنك تريد أن تذلنى بين أهلى .

وصاحت وهى تبكى تدافع عن حياتها الجديدة التى تعلقت بها والتى يتهددها الدمار :

ـــ لن أقبل هذا الذل أبدا .. لن أقبل هذا الذل أبدا .

ورأى الشيخ الدموع المنهمرة على خديها فألجم لسانه وان

كانت انفعالاته الثائرة تمور فى أغواره ، وسار مطرقا نحو السرير وصعد اليه واستلقى على ظهره وشرد ببصره ينظر الى عروق الخشب فى سقف الغرفة ، وصدره ينتفخ كالقربة ثم ينكمش كمثانة انفجرت فجأة .

وانسلت فردوس الى السرير وهى تبكى ، ونامت وقد أعطت ظهرها لزوجها اعلانا لخصامها وعدم رضائها عنه . واستمرت فى نحيبها وهى تتعمد أن يكون مرتفعا ليصل الى مسامع الزوج ويفعل به أفاعيله .

وراحت خلجة رقيقة تنبض فى جوفه ، ثم تحركت مشاعره الرواقص تتقدم فى حنان فى صدره لتطرد من أمامها احساسات الأسى .. وصفت نفسه وأفعمت بالرقة ، وخطر له أن يمد يده يمسح دموعها وأن يضمها الى صدره ولكنه راح يقاوم هذه المشاعر حتى لا يبدو أمامها ضعيفا متهالكا .

وتململ فى رقاده ودنا قليلا منها وهم بأن يمرر يده على شعرها فى حنان ، ولكنه كبح زمام رغبته .. وراح الوسن يداعب عينيه ماطبق جفنيه واستسلم للكرى .

وكفكفت فردوس دموعها واستشعرت رغبة جامحة تستبد بها ، انها تحن الى ذراعين قويتين تلتفان حولها وصدر حنون يحتويها وأنفاس حارة تذيب المشاعر القلقة المنبعثة فى أعماقها .

ونظرت من فوق كتفها الى الشيخ الراقد الى جوارها فألفته يغط فى نومه ، فانسلت من جواره فى خفة ، وسارت على أطراف أصابعها وهى مسحورة بالاحساسات الناعمة التى تدغدغ حواسها والقلق الشهى الذى يدب فى روحها والوهم الكبير الذى كان يقودها .

ودلفت الى غرفة عرفة وقلبها يدق دقا رقيقا ، ودماؤها تتدفق حارة فى عروقها ، وشبه غيبوبة تغمرها ، وارتمت على الفتى لتذوب فيه وتطمئن الى أنه معها لا يفرق بينها وبينه شيء .

ومر الزمن يطوى فى جوفه أسرار البشر ، وتقلب الزوج فى سريره وأحس أنه يتقلب فى حرية دون أن يرتطم جسمه بجسمها أو تحتك قدمه بساقها ، ومد يده يتحسس فلم يجد الا فراغا ، ففتح عينيه مفزعا ودق قلبه فى عنف وتدفقت انفعالاته فى ثورة ، وأدار عينيه فى المكان وهو زائغ البصر ، فلما لم يجدها انبهرت أنفاسه وغادر السرير وهو يكاد ينهار من الكمد .

وتقدم وقلق شديد يجتاحه وريبة قاتلة تزلزل كيانه ، وخوف من المجهول يستبد مبه ومشاعر ثقيلة تجثم على صدره ، وبلغ باب الغرفة فألفاها قادمة تصلح ثيابها ، منكوشة الشعر متوردة الخدين حافية القدمين ، فقال لها فى صوت متهدج مضطرب :

— أين كنت ؟

فقالت دون أن تضطرب :

— فى دورة المياه .

وألجم ولم يجد ما يقوله فذهب الى حيث وضعت القلل ، ورفع قلة وجعل يتجرع الماء منها فى صوت مسموع ، وأحس الماء البارد يجرى فى جوفه ولكن لم تنطفىء النار المندلعة فى حناياه .

وعاد الى فراشه وهو يحاول أن يبدو هادئا ، ولكن الأفكار البشعة وجدت مرعى خصيبا فى رأسه فراحت تتضخم وتضغط عليه فيئن أنينا مكتوما يدمى روحه ويزيد أساه .

وراحت أوهامه تؤكد له أنها كانت هناك فى غرفة عرفة بين أحضان الفتى ، فأحس كأن طعنة خنجر سددت الى قلبه .. والتفت

أنيها في حنق فألفاها مسبلة العينين مستسلمة للنوم الهادىء اللذيذ منتظمة الأنفاس ، فربا ضيقه وثبتت أنظاره على عنقها الطويل ونحرها العارى وراودته فكرة أن يقبض بيديه على عنقها وأن يضغط عليه حتى يزهق روحها ، ولكنه راح يطرد الفكرة من رأسه .. انه يحبها .. يهواها .. يريدها لنفسه خالصة .. انه عرفة الذى ينبغى أن يبعد .. أن يزال من طريقه .. أن يختفى من حياتها .

وطفق يفكر فى عرفة وفيما يفعله به ليتخلص منه ، ونبتت فى رأسه أفكار كثيرة راح يقلبها ويقارن بينها ، وأخيرا ارتاح الى فكرة بعينها فوطن العزم على انفاذها .

— ٨ —

ألقى عرفة ورقة الامتحان على الكنسول وخلع ثيابه وارتدى جلبابه المخطط وارتمى فى الفراش وأرخى لخياله العنان ، فلم يفكر فى الأيام الباقية على انتهاء امتحان آخر السنة ، ولا فى رفاق المدرسة ولكن شغلت رأسه دارهم المتواضعة فى القرية ، وأمه الجالسة فى ركن من القاعة تعد الطعام وأخوته حولها يتصايحون ، وأبوه وهو مقبل من عملة والشمس تلفظ آخر أنفاسها ، وصوت مؤذن القرية يؤذن بالمغرب يدعو الناس الى الصلاة والأوبة الى دورهم .

ونبتت فى جوفه مشاعر رقيقة واستشعر حنينا الى أهله ، فخفق قلبه شوقا وانتابه ضعف فغص وترقرقت الدموع فى مآقيه

فراح يمسحها بظهر يده فى راحة ، وقد استسلم للأفكار اللذيذة النابضة فى ذهنه .

وانعم بالشوق وتحرك ليفعل شيئا يطمئن به مشاعره الهائجة فغادر فراشه وراح يصر حوائجه فى « البقجة » التى جاء بها من قريته وهو مشبع بالغبطة ، يتمنى أن تطوى الأيام الباقية سريعا ليعود الى حياة القرية التى يشتهيها .

ودلفت فردوس الى الغرفة ووقفت ترقبه مليا وهى تعجب ، وراحت تتساءل فى نفسها عما يدفعه الى تجهيز حوائجه وأمامه حتى ينتهى امتحانه ثلاثة أيام طويلة ! ان دقائق قليلة كفيلة بوضع كل ما يملك فى الصرة .

وهمس فى ذاتها هامس يسأل : أيسافر الى أهله عقب انتهاء امتحانه مباشرة ؟ أيتركها للظمأ بعد أن وجدت عنده ما يروى غلتها ؟ واذا أراد أن يسافر أتتركه أم تغريه على البقاء ؟

ما الذى يغريه على العودة ؟ ألا يجد عندها ما لا يجده فى داره ؟ انه ينعم بغرفة وحده ، ويأكل كل يوم طعاما ما كان يأكله الا فى الأعياد ، ويسعد بها ، ألا يكفيه كل هذا ليبقى ؟ !

وأحست ضيقا .. فطنت من حركاته أنه يتعجــل الزمن ليتركها ، آه لو ذهب لصارت حياتها فراغا . انها لا تطيق أن تتصور أنه سيتركها . ليتها تجدعذرا تنتحله لتعود معه الى القرية ، أو ليت ستويلم يغضب منها ويأمرها أن تذهب الى أهلها فتنطلق معه سعيدة لا تفارقه حتى تنقضى اجازته !

ان هذا الفتى ملأ حياتها .. أذاقها ما لم تذقه طوال سنين زواجها .. خفق له قلبها خفقات شهية .. شغفت به حبا . أكانت تصدق أنها ستهيم يوما بصبى لما يتجاوز الخامسة عشرة !

وتقدمت منه وقالت وهى تبتسم :

ـــ من يراك وأنت تصر ثيابك يحسب أنك مسافر الساعة ؟

وسرعان ما غاضت ابتسامتها ، كان رنين صوتها فى جوفها مقبضا فقالت فى صوت فيه أسى :

ـــ لماذا هذه العجلة ؟

فقال عرفة وقد شرد ببصره بعيدا :

ـــ احس شوقا عظيما الى أمى وابى واخوتى بل الى جدران دارنا ، اتمنى أن أغمض عينى فأجد نفسى بينهم .

فرنت اليه بعيون مفتوحة ، وتحركت عقارب غيرتها ولم تستطع أن تكبت مشاعرها فقالت فى عتاب :

ـــ وانا ؟

فنظر عرفة اليها نظرة بلهاء ، لم يفهم ماذا تريد فقال فى حيرة :

ـــ ماذا ؟

فقالت فى صوت متهدج :

ـــ هل ستذكرنى ؟ هل ستشتاق الىّ ؟

فقال دون أن يضطرب أو تطرف عيناه :

ـــ طبعا .

وكان كاذبا فى قوله فلم تخطر له على بال لما فكر فى عودته الى أهله ، ولم يستشعر حسرة لأنه سيخلف وراءه شيئا يحبه . انها دخلت حياته كما دخلت الفتيات اللاتى عرفهن قبلها ، لقد كان لها سحر اول عهده بها ولكنها لم تترك فى قلبه أثرا ، لم تزد فى نظره عن فتاة لعب معها لعبته المفضلة ثم عاد كل منهما الى بيته .

أحس نحوها مرة احتقارا وفكر فى أن يفر منها ، ولكن حتى

ذلك الاحساس تبخر وصارت بالنسبة اليه شيئا يقضى معه لحظات مترعة بالمتعة الجسدية ثم يمر كل ما أحسه مرور الأنفاس التى دخلت رئتيه وخرجت منهما دون أن يذكر من ذلك شيئا .

ورن صوته فى أذنى فردوس زاخرا بالرياء ، لم يكن له تهدجات اضطراب المحبين ، ولم يكن له ذلك الطعم اللذيذ الذى كانت تتذوقه لما كان يهمس لها بألفاظ تافهة أول عهـدها به . واستشعرت ضيقا وامتلأت رغبة فى أن تنتزع منه اعترافا بحبه فقالت له :

ـــ أتحبنى ؟

وأرهفت حواسها ، كانت تتمنى أن يقول لها انه يعبدها وانه لا يستطيع أن يعيش بدونها ، ولكنه قال فى بساطة :

ـــ طبعا .

وثارت مشاعرها وسرت فى بدنها رعدة ، وانسدلت على عينيها غمامة فلم تعد ترى شيئا وغمت عليها احساساتها ، وأرادت أن تقضى على ذلك القلق الذى تفجر فى أعماقها فتقدمت اليه وضمته الى صدرها وراحت تقبله فى نهم وانفعال ، وسرعان ما استجاب لندائها .

وعادت الى غرفتها هادئة وتمددت فى فراشها وقد أسبلت عينيها فى استسلام وبدأ الوسن يداعب جفنيها ، واذا بسؤال راح يتدسس الى رأسها « هل الاستجابة دليل الحب ؟ » وشغل تفكيرها بالسؤال والاجابة عنه ، وراحت توهم نفسها أن استجابته لها دليل على حبه ، ولكن وساوس الشك كانت تبتلع الأوهام .

وباتت تترجح بين أفكارها حائرة ، لم تكن واثقة الا من شىء واحد هو أنها تحبه وأنها تتمنى أن تقضى ما بقى من عمرها معه .

آه لو كان أكبر من سنه وقادرا على أن ينفق عليها وأشار لها بأصبعه أن تتبعه ، لفرت معه دون تردد أو تفكير في مغبة ما تفعل .

وجاء الليل وأغلق باب الغرفة عليها وعلى زوجها ، فراحت تمسح به وتداعبه وتضع قبلاتها حيثما تقع ، فأوجس سويلم خيفة وأخذ يتأهب لسماع رغبة جديدة من رغباتها .

ولفت ذراعها حول رقبته وأسندت رأسها على كتفه فراح شعرها يداعب خده الخشن الخائر ، وقالت في صوت منكسر مشحون بالرقة والرجاء :

ـــ سويلم ، اشتقت الى أهلي أريد أن أزورهم .

فقال سويلم في نبرات هادئة :

ـــ هل لك أهل غيري بعد أن ماتت أمك ومات أبوك ؟ ألم تقولي لي انك أمي وانني أمك وأبوك ؟ !

فقالت وهي تزداد التصاقا به :

ـــ انت الخير والبركة ، ولكنني أحن الى زيارة قبر أبي وأمي ، ورؤية خالتي وأبناء خالتي .

ـــ وهل زارك أحد منهم ؟

فقالت في صوت حالم :

ـــ الي يبعثوا الي" عرفة !

وأحس كأن خنجرا صوب الى قلبه ، واذا بخاطر يزحف الى رأسه يهمس بأنها لا تبغي زيارة قبر أمها وأبيها ولكنها لا تطيق فراق الفتى ... تريد أن تكون معه ، فاهتز كيانه وانقبض صدره وثارت مشاعره وهم بأن يصيح فيها ، ولكن ضغط احساساته الشديد حبس صوته وكاد يكتم أنفاسه .

وكانت فردوس تهيم فى أمانيها فلم تحس انفعال الرجل الملتصق بها ، وقالت وهى شاردة ببصرها وذهنها معا :

ـــ سأسافر مع عرفة وسأنتظر حتى تأتى لتأخذنى ، ما أجمل هذا ! سيعيد أيام سعادتى .. سأحس تلك الاحساسات الغامضة اللذيذة التى كنت أحسها فى الأيام الحلوة التى سبقت زفافنا .

وانفجر مرجل غضب الزوج فقال وهو يبعدها عنه بكتفه :

ـــ لن يكون هذا أبدا .

وأفاقت من حلمها فنظرت اليه بعينين مفتوحتين وقالت :

ـــ لماذا ؟

فقال والغيرة تنهش فؤاده :

ـــ قلت لك اننى لا أريد عرفة فى بيتى ، ولا احب أن تكونى فى مكان يكون فيه عرفة .

ـــ لماذا ؟

فقال فى غيظ :

ـــ لأننى أكرهه .. أمقته .. أبغضه .. لا أحبه .

وضاقت الدنيا فى عينيها ، وتحركت مشاعر كثيرة متباينة فى أغوارها فانفجرت قائلة :

ـــ لماذا ؟

واحس كأن سوطا هوى على وجهه ، فقال وصـــدره يعلو وينخفض :

ـــ لأنه .. لأنه ..

ولم يستطع أن ينطق الكلمة التى ملأت رأسه وفمه ومزقت كيانه ، فهب واقفا وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابا وهو يرتجف يحس كأنه سينفجر ويتطاير أشلاء ، ووجدت فردوس الفرصة

مواتية لاثارته وارغامه على اهانتها لتجد فى ذلك تكئة لغضبها وعودتها الى أهلها ، فقالت وهى تقف فى طريقه متحدية :

ـــ لأنه ماذا ؟ قل .

فقال وهو يزيحها بيده من طريقه :

ـــ كفى .. اسكتى .

فقالت فى عناد :

ـــ لن أسكت قبل أن اعرف ماذا يدور فى رأسك .. قل لأنه ماذا ؟

فقال فى ضيق :

ـــ اوه .. والله ان لم تسكتى لأذهبن اليه الآن وأكتم انفاسه .

وكان يذرع الغرفة فى طريقه الى الباب ، فأسرعت فردوس دون تفكير الى الباب تسده بجسمها وقد عزمت على أن تقاوم زوجها اذا ما فكر فى مغادرة الغرفة ، ولكنه ظل غاديا رائحا وهو يقول فى حنق وهو يصرف أنيابه :

ـــ سأقتله .. سأقتله يوما .

وجعلت فردوس ترصد حركاته دون أن تنبس بكلمة وقد أوجست منه خيفة .

— ٩ —

كان الوقت ضحى والشقة هادئة لا يسمع فيها الا وسوسة أساور وارتطام نحاس بنحاس بين لحظة وأخرى وخرير ماء ، فقد ذهب سويلم الى دكانه ، وانطلق عرفة الى تأدية امتحانه ، ودخلت فردوس تغتسل .

كانت فردوس تستحم عقب أن تهب من نومها وقبل ان تعد طعام الافطار لزوجها ، ولكنها قرأت فى عينى زوجها ريبة ووخزها مرات بكلمات مغلفة بدعابة نطقت بالشك الذى يساوره ، فصارت تنتظر حتى يخرج وتولى وجهها شطر الحمام .

وانقضت فترة صمت طويلة ، كان الكوز فى يد فردوس ولكنها لم تمده لتملأه من الطست الموضوع تحت صنبور الماء فقد شردت ببصرها تفكر ، لم يبق الا يومان على سفر عرفة تعود بعدهما الى حياة الحرمان والجفاف ، ولن تعرف الحمام الا يوم الجمعة لتزيل عرق الأسبوع وتبدل ثيابها التى اتسخت .

وطافت بها سحابة من الأسى ، وربت سحب الحزن وتراكمت لما تذكرت انها لن تستطيع أن تذهب الى عرفة فى قريتهم اذا هزها الشوق اليه ، فقد كانت ثورة زوجها عارمة لما طلبت منه أن تزور أهلها . انه يشك فى العلاقة التى بينها وبين عرفة ، وانه ليهم بأن يلقى الاتهام فى وجهها ولكن كبرياءه تلجم لسانه .

قال لها مرارا انه لايطيق فراقها ، ويا طالما عبر لها عن حبه .

انه صادق فى مشاعره ولكن رقة الكلام ما كانت بقادرة على اخماد أنفاس الغول الذى غذاه عرفة بشبابه فزاده ضراوة ووحشية .

وتدسست الى رأسها فكرة : أخلت الدنيا من الرجال ولم يعد فيها الا عرفة ؟! اذا سافر عرفة فما أكثر الرجال الذين يتمنون أن ينالوا ما ناله عرفة ، ولم تفزعها الفكرة ولم تحاول وأدها وان أحست عدم راحة ، كانت فى أعماقها تفضل أن تدوم علاقتها بالفتى وأن تقتصر عليها .

وفكرت فى سوليم واذا بالعجب يملؤها ، لماذا يغار كل هذه الغيرة لمجرد شكه بأن هناك شيئا بينها وبين عرفة ؟ انه لم ير شيئا أنكره ولكنه أحس احساسا غامضا عذبه ، ولكن لماذا يتعذب ؟ ان عرفة لم يسلبه شيئا ولكنه استعمل ذلك الشىء الذى لم يعد هو بقادر على استعماله . وقبل أن تستريح الى الفكرة وخزها واخز من نفسها راح يسألها أكانت تحس ما يحسه زوجها لو كانت أكبر منه سنا وهام زوجها على وجهه يلتقط لذاته ؟ واستشعرت ضيقا لما صاح فيها صائح انها ما كانت لتغفر لزوجها ما يفعله وان كانت هى غير قادرة على تلبية رغباته .. انها طبيعة البشر .

ومدت يدها بالكوز فى عصبية تملؤه وصوت يدوى فى أعماقها : « هذا ظلم .. هذا ظلم .. ما كنت لأختار هذا الطريق لو كان زوجى شابا .. ظلم .. ظلم » . « ماذا يفعل سويلم لو رآنى بين أحضان رجل غيره ؟ .. يقتلنى ويقتله .. سويلم يقتل ؟ ولماذا لا يقتل ؟ لقد قال لى : والله ان لم تسكتى لأذهبن اليه الآن وأكتم أنفاسه .. انه لو خاننى زوجى مع امرأة لقتلته وقتلتها . أأستحق القتل ؟ . أأنا أستحق القتل ؟ ! هذا ظلم .. ظلم » .

ونهضت ترتدي ثيابها وهى تعجب من نفسها وتتساءل عما جعل رأسها يجيش بكل هذه الأفكار وما كانت تفكر فى شىء من ذلك ، وما كانت لتندم على ما تفعل ، وما كانت تحاسب نفسها ، أهيجت أفكارها أشباح الوحدة التى تترقبها بعد ذهاب عرفة ؟ إنها لا تدرى . كل ما تدريه أنها ضائعة قلقة حائرة مضطربة .

وأحست رغبة فى البكاء وانبثقت دمعتان فى عينيها ، ولكن لماذا تبكى ؟ ! انها تستشعر رهبة .. رهبة من شىء غامض . انها خائفة وما كانت تعرف الخوف من قبل ، انها لتنساب من جوار زوجها فى هداة الليل لتذهب الى عرفة دون أن تختلج فيها خلجة رهبة ، فما بالها تضطرب الساعة وليس هناك ما تهابه ؟ !

وجففت رأسها بالمنشفة ، وكورت شعرها ثم لفت المنشفة حول رأسها فبدت كالعمامة التى تلف على شاهد الضريح ، وفتحت باب الحمام وقبل أن تجتازه سمعت طرقا على الباب فصاحت :
ـــ حاضر .

وذهبت الى الباب وفتحته فألفت أم نعيم تنظر اليها طويلا وتلتمع عيناها المضعضعتان ببريق خبيث ، وتنفرج شفتاها عن فم ليس فيه الا ناب واحد طويل ، ثم تقول :
ـــ نعيما .. صباحية مباركة .
وقالت فردوس وهى تفسح لها طريقا :
ـــ أنعم الله عليك .. تفضلى ..

وتقدمت أم نعيم فى خطوات بطيئة .. كانت ترتدى جلبابا أسود فضفاضا وعلى رأسها طرحة سوداء صار لونها زيتونيا ، وظهرت سوالفها من تحت المنديل الذى تعصب به شعرها بيضاء ناصعة . انها فى السبعين من عمرها ومع ذلك لا تقر فى بيتها ،

تنتقل من بيت الى بيت حاملة الأسرار التى تبعثرها هنا وهناك . لذتها الوحيدة أن تسمع وأن تنقل ما تسمع وأن تزيد على ما تنقله ما شاء لها خيالها ، وما كانت تلتقط الا الفضائح والمصائب والمعايب .

وتلفتت وقالت فى حسد :

— ربنا يمتعك بشبابك .

وانفرجت شفتاها عن نابها الطويل وقالت :

— والله قلبى يحبك لأنك يتيمة مثلى وبنت حلال ، روحى الله يسترك دنيا وآخرة يا فردوس يا بنت زكية .

ووصلتا الى غرفة عرفة ودلفتا اليها ، وجلست أم نعيم على الأرض ومالت فردوس عليها تحاول رفعها وهى تقسم قائلة :

— والله قومى واجلسى على الكنبة .

— وحياة النبى اللى زرته أنا مرتاحة .

— اترفعى يا شيخه .

— مرتاحة والنبى ، روحى الله يريحك ويسترك دنيا وآخرة .

وجلست فردوس أمام مرآة الكنسول ورفعت المنشفة عن رأسها واخذت تسرح شعرها الأسود الطويل ، وأم نعيم ترمقها فى حسرة تحاول أن تغريها بنظراتها ، وقالت :

— ايه .. ذهبت أيامنا . كانت أياما جميلة ولو أنها كانت قصيرة . كان المرحوم لا يترك شعرى يجف ابدا ، ما ان أخرج من الحمام حتى يعيدنى اليه مرة ثانية ، كنت أحب أن أصلى ولكن ما كان يترك لى وقتا للصلاة .

وضحكت فردوس ضحكتها المنغمة الزاخرة بالنداء وقالت :

— اما كان له عمل غيرك ؟

فقالت أم نعم وهى تطوح ذراعها :

ـــ كانت دكانة تحت البيت ، وكان كالمكوك صاعدا هابطا . .
لم يكن آدميا . . كان وحشا .

وصمت أم نعيم قليلا ثم قالت :

ـــ الله يرحمه ويجعل أراضيه الجنة .

فقالت فردوس وهى تضحك :

ـــ اطمئنى انه من أهل الجنة .

فقالت أم نعيم وهى ترمقها فى استخفاف :

ـــ وما ادراك ؟

ـــ لأنه مات شهيدا .

فقالت أم نعيم فى ضيق :

ـــ مات وتركنى صغيرة .

ـــ ولماذا لم تتزوجى بعده ؟

ـــ قلت أعيش للولدين ولا أقهرهما ، حرمت نفسى وربيتهما ولما كبرا تزوجا وتركانى وحدى ، آه لو كنت أعرف ما أهدرت شبابى .

فقالت لها فردوس وهى ترمقها فى المرآة :

ـــ أنادمة على ما فعلت ؟

فقالت أم نعيم فى حسرة وإن تظاهرت بالمزاح :

ـــ لو كان فى رأسى عقل ما قبلت ان أعيش بلا رجل حتى تجف عروقى . . روحى الله يمدلك فى عمر العم سويلم ويروى لك عروقك .

ومالت فردوس برأسها وضحكت ، وراحت أم نعيم تتجول فى الغرفة بعينيها فرأت جلباب عرفة معلقا ، فالتمعت عيناها ببريق خبث وقالت :

— أما زال العم سويلم عرقا ؟
فقالت فردوس وهى تنهض :
— انه عرق ولكنه ليس وحشا كزوجك .
وعادت أم نعيم تنظر الى جلباب عرفة وقالت :
— نعمة .. احمدى الله عليها ، ما جئت لزيارتك الا ووجدتك خارجة من الحمام .

وصمتت قليلا تغالب الكلمات التى تتراقص على لسانها ، ولم تستطع أن تكبدها ولكنها غيرت اتجاهها قالت :

— وكيف حال عرفة ؟

ونظرت فردوس اليها تتفحصها فى ريبة ألفتها مطرقة ، انها تعرفها داهية تريد أن تجرها الى ما تبغى لتدور بقصتها مع عرفة على بيوت الجيران ، فراحت تتحدث فى روية وتزن الكلمات قبل أن تتفوه بها قالت :

— بخير . وسيسافر بعد غد ليعود الى أهله .

— ولماذا هذه العجلة ؟

— وما الذى يبقيه بعد انتهاء الامتحان ؟ !

وأسبلت أم نعيم عينيها .. كانت هذه عادتها كلما وخزت وخزة كأنما كانت تخشى أن تكشف عيناها سريرتها ، وقالت :

— يساعد العم سويلم فى الدكان .

وهمت بأن تقول غ انه لا يزال صغيرا ، ولكنها أحست أن العجوز ستسخر من قولها ، وانها قد تنفذ من ذلك الى السؤال عن سنه والى الحديث عن قدرته على انجاب الأولاد ، فوجدت أن الصمت أسلم فلم تنبس بكلمة وتحركت تنشر المنشفة .

وضايق أم نعيم ذلك الصمت وغاظها تهرب فردوس من

الخوض في هذا الحديث ، ورأت أن تعرج على حديث آخر فيه غمز قد يعود بها الى الحديث عن عرفة ، فقالت :

ـــ العم سويلم رجل طيب وابن حلال ولكننى فى حيرة من أمره هذه الأيام .

ولزمت الصمت لتثير فى فردوس رغبة كشف سر الزوج . وسرها أنها نجحت فى خطتها لما رأت فردوس تقبل عليها وتقول لها فى اهتمام :

ـــ وماذا أنكرت من امره ؟

فقالت أم نعيم فى صوت فيه رنة أسى متكلفة :

ـــ سيره مع سرحان .

ـــ سرحان من ؟

فقالت أم نعيم وقد أسبلت عينيها :

ـــ ألا تعرفين سرحان ؟ انه يعيش على قتل الناس .

ـــ يعيش على قتل الناس ؟

ـــ نعم . من له غريم يؤجره لقتل غريمه .

ـــ ومتى يقابله سويلم ؟

ـــ ان سرحان كالخفاش لا يغادر بيته الا بعد أن تغيب الشمس .

ـــ وأين يسكن ؟

ـــ فى البيت المتهدم المجاور للفرن .

ـــ أى فرن ؟

ـــ الفرن الواقع خلف دكان العم سويلم .

وهمت بأن تسألها عن العلاقة بين زوجها وسرحان ، ولكنها حزرت كل شىء . قال لها سويلم انه سيقتل عرفة يوما وها قد جاء

اليوم ، أجر مجرما ليقتله .. ولكن لماذا لا يقتلها هى ؟! انه أعجز من أن يفعل ذلك .. انه يحبها .. يهواها .. يريدها خالصة له .

وتفتحت نفس أم نعيم ، سرها أنها غرست فى نفس فردوس القلق ، وزاد فى سرورها تلك الأفكار التى راحت تتجمع فى رأسها حول فردوس وسويلم وعرفة ، ستجد قصة مثيرة تدور بها على بيوت الجيران ، وضاعف من غبطتها أن القصة تروى فضيحة جنسية وهى تشتهى كل حديث يقودها الى الجنس حتى تغرق فيـــه .

وانطلقت أم نعيم تتحدث وفردوس لا تفقه من حديثها شيئا ، كانت مشغولة بالتفكير فيما تفعله لتنقذ عرفة .

— ١٠ —

فاض قلق فردوس بعد أن تيقنت من أن حياة عرفة فى خطر ، لقد دفعت الغيرة الشيخ الى أن يكترى رجلا ليتخلص منه ، وراحت الأفكار تتزاحم فى رأسها .. كانت تقلب الرأى فيما تفعله لتنقذ الفتى فقد عزمت على ألا تقف مكتوفة اليدين .

دار بخلدها أن تجابه سويلم بأوهامها ، تقول له انه أجر سرحان لاغتيال عرفة فلا يسعه الا أن ينهار أمام المفاجأة . سينكر ما دبر ويتملص من التهمة ويعمل على تجميد مؤامرته بعد انكشاف أمره . ولكن ماذا يكون الموقف لو أخذته العزة وثار وحطمها فيما يحطم ! ماذا لو ألقى فى وجهها اتهاماته وطلقها وراح يوســع الأرض اذاعة بما بينها وبين الفتى ؟! لا . ان محاولة الوقوف

فى وجه سويلم الحاقد الثائر المطعون ليست بالرأى . ولكن ما الرأى ؟ أتترك الفتى يقتل ؟

وارتجفت وثارت دماؤها حارة فى عروقها وزاد خفقان قلبها ، وراح يهمس فى نفسها هامس يقول : أهون على أن أفضح من أن يقتل عرفة . ليت الناس كلهم يعرفون ما بينى وبينه ويترك لى !! .

وراحت تذرع الغرفة وهى مطرقة ، وتدسست الى رأسها فكرة الذهاب الى سرحان فى وكره وتهدده بأنها على علم بما هو مقبل عليه ، وان حبل المشنقة ينتظره لو أصيب الفتى بمكروه ، ترى أيرضخ مجرم لهذا التهديد ؟ وماذا تفعل لو سخر منها وقال لها انها لا تستطيع أن تشى به لأن معنى ذلك وقوفها أمام المحكمة واعلان فضيحتها على الملأ . ستقول له انها لن تخشى الفضيحة بعد قتل عرفة ، فلن يكون لها شىء بعده .. واذا لم يخضع لتهديدهما وقتله فماذا تفعل ؟ أتشى به ؟ وما الذى ستجنيه بعد قتل عرفة !! .

ــ « لا ، لن يقتل عرفة ، لن أتركه للموت أبدا ، سألتمس من سويلم أن يتركه لشبابه ، وأقسم له اننى لن أحاول أن أعيده الى البيت أو أذهب الى قريتنا ، أيقبل سويلم هذا ؟ ، لن يقبله . انه يشك الآن وحسب ، وانه ليقدم على القتل لمجرد الشك .. وأن توسلى اليه سيؤكد أوهامه .. الويل لى ماذا أفعل ؟ » .

وراحت تقطع الغرفة جيئة وذهابا وفى وجهها حيرة وفى رأسها أفكار كثيرة وفى قلبها قلق وخوف ، وبدأ اليأس يتسرب الى كيانها فاستقر رأيها على أن تذهب الى سرحان فى وكره وليكن ما يكون .

وارتدت ثوبا أسود فضفاضا وأسدلت على وجهها نقابا

أسود ، وانطلقت مأخوذة تحس كأنها تعيش فى غيبوبة ، ولولا ضربات قلبها الشديدة لحسبت أنهافى حلم من الأحلام .

وانسابت فى الطريق وقد وسعت من خطوها ، فالمشاعر المتفجرة فى صدرها تدفعها دفعا فى سيرها ، واللهفة على مقابلة سرحان ومجابهة المجهول الذى يترقبها ووضع حد للخوف الذى ينتابها تغريها على التقدم فى حماسة ، وأن تلقى بنفسها فى المعركة .

كانت غاية أمانيها أن تخرج منتصرة ، أن تنقذ عرفة دون أن تضطر الى إعلان فضيحتها على الملأ ، انها تعيش الساعة لهذه الأمنية فاذا أخفقت فى ثنى سرحان عن عزمه فليس أمامها الا أن تذهب مع عرفة ، مضحية ببيتها وسمعتها ، مشاركة اياه فى الخطر الذى ينتظره ، لن تتركه أبدا يلاقى الموت وحده .

ووصلت الى الفرن فتمهلت وراحت تتلفت زائغة البصر ، وثبتت عيناها على البيت المتهدم بجوار الفرن فكاد قلبها ينخلع من بين ضلوعها وتسمرت فى مكانها برهة ، وطافت بها رغبة فى أن تولى الأدبار ولكنها وأدت ضعفها وتقدمت من صبى صغير وقالت له وهى تشير الى البيت المتهدم :

— أهذا بيت سرحان ؟

فقال الصبى وهو يتفرس فيها فى دهش :

— نعم .

— وأين يسكن ؟

— فى أول غرفة على اليمن .

— أهو موجود الآن ؟

— نعم .

— وحده .

ـــ اظن ذلك .

ولمت أطراف شجاعتها ومشت صوب البيت المهدم والصبى يرمقها فى استغراب ، وهبطت فى درجتين وسارت فى دهليز رطب مظلم انبعثت منه روائح روث البهائم ، وبلغت أول غرفة على اليمين فوقفت قليلا حتى تعتاد عيناها على الظلام وحتى تلتقط انفاسها .

وطرقت باب الغرفة فى اضطراب ،ومرت لحظات كلها قلق ، واخيرا فتح الباب ، واذا برجل طويل عريض الكتفين عارى الصدر غزير الشارب يملأ فراغ الباب ويتطلع اليها فى استغراب ، فسرت فى بدنها رعدة ، ولكن سرعان ما قبضت على مشاعرها بيد من حديد .

وظل سرحان ينظر اليها مليا يحاول أن يخترق ببصره ذلك النقاب المنسدل على وجهها ، ثم قال وهو يفسح لها طريقا :

ـــ تفضلى .

وتقدمت خافقة القلب ، ودارت بعينها فى المكان فلم تجد الا فراشا قذرا كوم على الأرض ومقعدين من مقاعد المقاهى الخشبية الطويلة العالية ، وذبالة علقت فى مسمار دق فى الحائط .

واغلق الرجل الباب وتقدم وهو يمسح شفتيه بأصبعه كأنما يمسح لعابا سال ، واشار الى المقعد الخشبى السليم وقال :

ـــ تفضلى .

وبقيت واقفة منتصبة وقالت :

ـــ أنت سرحان ؟

فقال فى زهو :

ـــ نعم فى خدمتك .

فقالت فى انفعال :

— جئت احذرك من تنفيذ ما اتفق عليه معك سويلم .

فقال لها فى انكار :

— من أنت ؟

— هذ لا يهمك .

— وما الذى أدراك بما بينى وبين سويلم ؟

فقالت وقداتسعت عيناها وراح صدرها يعلو وينخفض :

— ان أصيب الفتى بمكروه فستقتل .

فضحك فى استخفاف وقال :

— لم يخلق بعد الذى يقتلنى .

وأمسكت خصلة من شعرها وقالت :

— أقسم بهذا أنك ستقتل اذا قتل عرفة .

فقال فى انفعال :

— من ذا الذى يقتلنى .. أنت ؟! عشت حتى رأيت امرأة تتوعدنى !

وأحست أنها بدأت تملك ناصية المعركة فقالت فى ثقة :

— اذا كان سويلم قد دفعك الى هذا بماله فأنا أستطيع أن اغرى رجالا على قتلك بنفسى ، ما أكثر الذين يتطوعون لقتلك لقاء ليلة معى ! .

وصمت كأنما ألقم حجرا ، وراح ذهنه يعمل فى سرعة ، فأحس طلائع هزيمته ، ورأى أن يستغل الظرف ليقلب اندحاره نصرا فدنا منها وقال وهو يبتسم فى خبث :

— أنا على استعداد أن أقبض الثمن الآن وأن أنقض اتفاقى مع سويلم .

ومد يده ليجذبها اليه ويضمها الى صدره ، ولكنها دفعته فى قوة فقال فى حنق :

— أترفضين ؟

— نعم .

— لماذا ؟ مادمت على استعداد لدفع الثمن ، فما الفرق بين أن تدفعيه لى أو تدفعيه لغيرى .

— لأننى لا أثق فيك .

— أقسم لك أننى سأنفذ اتفاقنا .

وعاد اليها مرة أخرى ليضمها اليه فدفعته فى شدة وهى تقول :

— حذار أن تدنو منه .

فقال فى غضب :

— اذن سيقتل ، ولن أحرم رجلا من أن يقضى ليلة معك .

فقالت وهى تتجه الى الباب وتفتحه :

— لن تقدر .. لن تستطيع .

وخرجت وهى تعجب من نفسها .

— ١١ —

استيقظ عرفة فى البكرة وارتدى ثيابه وجعل يغدو ويروح فى الغرفة يتعجل الزمن ، ويرنو الى حقيبته الصفراء والصرة الموضوعة على الكنسول فيمتلىء نشوة ، فلن ينقضى اليوم حتى يكون بين أمه وأبيه وأخوته .

وجلس على حافة فراشه وشرد ذهنه ، فرأى نفسه بعين

خيـاله يقـدم لأمه قطعة القماش السوداء التى اشتراها لها فيفيض وجهها بشرا ، ويعطى الأخوته الذين التفوا حوله اللعب الريفية البسيطة المتواضعة التى خططت بالأحمر والأبيض فيتعالى صياحهم فرحا ، ويهدى لأبيه سبحة سوداء فيدعو له بالهداية . وسرت الحماسة فى صدره فنهض وعاد يذرع الغـرفة جيئة وذهابا ..

وجاءت فردوس تدعوه لتناول الطعام فألفته قد ارتدى ثيابه وتأهب للسفر فانقبضت ، ساءها لهفتـه على الذهاب ، انه لا يريدها .. لايحس بها .. يتعجل اللحظات لينطلق ، انه سينساها .. لن يذكرها بينما هو فى خيالها لا يريم . وقالت فى مرارة :

ـــ لماذا هذه العجلة ؟ الساعة الآن السابعة ولن يتحرك القطار قبل العاشرة .

ـــ أحس شوقا طاغيا الى أهلى ، ليتنى أذهب الآن .

واستولت عليه فكرة الخروج فاتجه الى حقيبته يحملها ، فقالت له :

ـــ ماذا تفعل ؟

ـــ انى ذاهب الى المحطة .

ـــ لا زال أمامك ثلاث ساعات ،اتقفثلاث ساعات تنتظر القطار ؟ !

فقال وهو يبتسم :

ـــ لن أضجر أو أتململ ، سأكون راضيا ما دامت رحلتى قد بدأت .

فقالت وهى تملأ عينيها منه :

ـــ تعال أفطر ثم افعل ما تريد .

وسار غرفة الى حيث وضعت الطبلية ، وسارت فردوس

خلفه وهى منقبضة يملأ جوفها قلق وخوف وحزن وانكسار .
ووقعت عينا عرفة على سويلم الجالس الى الطبلية فحياه وجلس ، وجلست فردوس وهى مشغولة بالأفكار التى أخذت تتدفق الى رأسها والمشاعر التى راحت تزحف من هنا وهناك ويضيق بها صدرها .

فكرت فى ذهاب عرفة الآن فحبذته فذلك يضيع على سرحان فرصته ، اذا كان ما زال مصرا على أن يصرع الفتى . انه سيتربص له قبل موعد القطار بقليل ، فاذا ما انطلق الساعة فسيفلت من قبضته ، وقررت أن تغرى عرفة بالذهاب فقالت لزوجها :

ـــ عرفة يريد أن يذهب الآن .

فقال سويلم دون أن يرفع رأسه :

ـــ لا ، قلت لعليوة أن يجهز « الكرتة » ليوصله الى المحطة .

فقال عرفة :

ـــ متشكر يا عمى ، ولكننى أفضل الذهاب الآن على قدمى .

فقال سويلم وهو يجاهد أن يبدو هادئا :

ـــ الحر شديد اليوم .

فقالت فردوس وهى تنظر فى قلق :

ـــ ما زلنا أول النهار .

فقال سويلم وهويمد يده الى الطعام :

ـــ لا أحب أن يصاب بضربة شمس فى اليوم الذى سيعود فيه الى أهله .

وهمس فى نفس فردوس هامس يقول : ولكنك تحب أن يصاب بطلق ناوى والا يعود الى أهله .

وساد الصمت وشغل كل منهم بأفكاره عن كل ما حوله ، كانت فردوس تفكر فيما تفعله لو عاد عليوة وقال ان عرفة قد

قتل . اتهم زوجها بقتله ؟ وماذا ستجنى من هذا الاتهام ؟ ستخسر عرفة والزوج معا ، واذا أقفلت فمها ولزمت الصمت فكيف تعيش مع رجل تعرف أنه قاتل ، وقاتل من ؟ عرفة .

ووسوس فى جوفها صوت يقول : وهو .. كيف يعيش معى فى بيت واحد وقد لوثت شرفه ؟

وهب صوت آخر يصيح فيها : لا ، انه يشك وحسب ، انه ليس على يقين ، فلو أنه رأى شيئا لما بقى معى لحظة ، أما أنا فاننى واثقة من أنه هو المحرض على قتل الفتى .

وخطرت لها فكرة أن تنهض وترتدى ثيابها وتنطلق مع الفتى الى المحطة تحميه ، ولكنها فطنت الى أن ستويلم لن يوافق على ذهابها ، سيسفه رغبتها ويرفضها رفضا . وظلت فريسة للأفكار المتباينة الزاحفة الى رأسها دون انقطاع .

وشرد سويلم بخياله وتمنى لو أن عرفة سافر ليلا ، اذن لكان قتله أيسر ، ولكنه أخذ يطمئن نفسه أن سرحان لا يأبه بليل أو نهار ، انه ماكر يقتل فى الظهيرة ويروغ كالثعلب .

واختلس نظرة الى الفتى الذى حكم عليه بالاعدام ، فاذا بغضبه يتحرك ودماؤه تثور ومقته يسرى فى عروقه كالصديد ، وتعفنت روح الشيخ فلم تنبت فيها خردلة من شفقة .

وظل عرفة متهلل الأسارير .. انه يرى أمه وهى تضمه الى صدرها الحنون ، وأباه يربت على ظهره ، وأخوته يلتفون حوله يصغون اليه وهو يسرد عليهم حياة البندر . ويرى الطرق الضيقة الحبيبة الى نفسه ، والحقل والساقية ورفقاء صباه وحمرة الشفق ساعة الغروب .

كانت نفسه مسرحا لحنين رقراق طاهر ، وحنان ملائكى

لا يدنسه رغبة جامحة ولا لهفة على نتاة من فتيات القرية اللاتى كن يشاركنه لعبته المفضلة ، فقد كان غارقا فى الجسد يهفو الى غذاء روحى بعد أن نضبت ذخيرته من أحاسيس الحب العفيف .

وانتهوا من أفكارهم وعاد عرفة الى غرفته ينظر الى حقيبته وصرة الثياب فى شغف ، تراوده فكرة أن يحملها وينطلق ، ولكنه كان يعتصم بالصبر حتى لا يغضب الشيخ فى آخر يوم له فى بيته .

وراح الوقت يمر وئيدا وئيدا ، وكل من عرفة والشيخ وفردوس يتعجل مروره ليقضى على التوتر الذى يعيش فيه ، وأخيرا ارتفع رنين جرس « الكرتة » فتفتحت نفس عرفة فرحا ، وانقبض صدر الشيخ ، وانخلع فؤاد فردوس هلعا وكاد يفلت منها زمام أمرها وتند منها صرخة .

وأسرعت فردوس الى غرفة الفتى تودعه وقلبها يرفرف بين ضلوعها كجناح حمامة ، وقابلته وهو مقبل وقد حمل حقيبته وصرته فاستشعرت رغبة مستبدة تغريها بضمه وتقبيله ، ولكنها قاومت تلك الرغبة وقالت فى صوت متهدج تخنقه العبرات .

ـــ مع السلامة .

وافسحت له الطريق ووقفت ترنو اليه من خلال دموعها التى انبثقت .ملأ مآقيها ، ولم تعد ترى شيئا فمسحت عبراتها بظهر يدها ، ورأته وهو يتجه الى باب الشقة فأسرعت اليه وهمست :

ـــ ألا تودع العم سويلم ؟

ووضع الحقيبة على الأرض وانطلق الى غرفة الشيخ ، وقال وهو يمد له يده مصافحا :

ـــ عن اذنك يا عمى ، القاك على خير .

وصافح الشيخ الفتى فى فتور وهم بأن يقول له : « مع السلامة » ، ولكن حرارة مقته صهرت الكلمات فتبخرت على شفتيه ، ولم يفطن عرفة الى وداع الشيخ الفاتر ولم يأبه به ، وعاد مسرعا ليحمل حقيبته .

ومر بفردوس وهو يكاد لا يحس بها ، وحمل حقيبته وسار واذا بفردوس تسرع وتفتح له الباب ، وما أن يخرج منه حتى تتبعه وتجذب الباب خلفها وتخف اليه وتقبله قبلة خاطفة وتقول :

— مع السلامة .

وطفق عرفة يهبط فى السلم خفيفا يحس احساس السجين الذى يغادر سجنه لأول مرة ، ووقفت فردوس عند رأس السلم تنظر اليه وفى قلبها لوعة وفى نفسها حسرة وفى عينيها دموع ، ولم تستطع أن تكبح جماح عواطفها فراحت تنشج بصوت مسموع .

ووضع عرفة حقيبته وصرته فى « الكرتة » وقفز الى جوار عليوة خفيفا ، وملأ رئتيه بالهواء ثم زفره فى راحة وقال لبطمن نفسه :

— الى المحطة .

وانسابت « الكرتة » صوب المجهول .

وعادت فردوس الى حيث كان سويلم ، كان القلق باديا عليها نطرق ثم ترفع رأسها وتتلفت وتأخذ فى التململ ، ولا تلبث أن تنهض وتغدو وتروح فى الحجرة دون أن تفعل شيئا ، ثم تعود لتجلس وتطرق وتتلفت ، ولولا انشغال الشيخ بالأفكار الطاغية التى تتدسس الى رأسه والمشاعر القاسية المزمجرة فى ذاته لفطن الى اضطرابها .

ولم تطق المكث فى الغرفة فقامت وانطلقت الى غرفة لها

شباك على الطريق وراحت تنظر من خلاله شاردة ، وقد نبتت في رأسها هواجس كثيرة . راحت تتساءل عما تفعله اذا عاد عليوة وصاح ان عرفة قد قتل . أتجرى في الشارع محلولة الشعر تصيح كالمجنونة ؟ أترتدى عليه ثياب الحداد ؟ أتقول لزوجها انها تعلم أنه هو المحرض على قتله ؟ أتنتقم لعرفة وتقتل سويلم ؟ أتنفذ وعيدها لسرحان ؟ لقد اقسمت بخصلة من شعرها أن سرحان اذا أصيب الفتى بمكروه ، فأين ذلك الرجل الذى يقدم على قتل سرحان لقاء ليلة معها ؟ ! .

وأحست أن سرحان سيسخر من تهديدها فتقاصرت نفسها وأحست رهبة تكاد تكتم أنفاسها ، ولكن أيقدم سرحان على القتل بعد أن تيقن أننى أعرف نواياه ؟ ألا يخشى أن يدفعنى اليأس الى البوح بكل شيء ؟ آه لو ركب سرحان رأسه وركبت رأسى ! .

وأحست حركة خلفها فالتفتت فرأت سويلم قد أقبل شاردا وذهب الى الشباك وألقى نظرة فاحصة على الطريق ، فقد جاء يتنسم الأخبار مثلها ، وكلاهما كانت آماله معلقة بعودة عليوة وان تباينت الآمال كل التباين وتنافرت الرغبات .

وساد بينهما صمت قاتل ، حتى كان كل منهما يخشى أن يسمع الآخر دقات قلبه وصوت أنفاسه ويقرأ ما فى نفســـه من مشاعر وأفكار ، وراح الزمن يسير سير السلحفاة فيزيد من الآلام الجاثمة على صدريهما ، ويوسع فى هوة الهلع التى حفرت فى أعماقهما .

وارتفع رنين جرس « الكارتة » فذهبت نفساهما شعاعا واتسعت عيونهما رعبا وانبهرت أنفاسهما ، وأحس كل منهما أنه يكاد أن ينهار .

ووصلت الكارتة الى البيت ، ولم سويلم أطراف شجاعته وأطل

من الشباك وهو يحمل نفسه على ذراعيه حملا ، وقال فى صوت أجش مضطرب :

ـــ هية يا عليوه ؟

ورفع عليوة رأسه وصاح فى صوت هادىء :

ـــ وصلته بالسلامة ! .

وتبخرت مخاوف فردوس وزحف الاطمئنان فى جوفها ، ثم راحت فرحة تعربد فى أعماقها ، ولم تقو على كبت مشاعرها فذهبت الى زوجها تضمه وتقبله .

وأبعدها سويلم عنه فى عنف ، ووقفت فردوس ترقبه وعلى شفتيها بسمة وأساريرها منبسطة ، فقد سرها نجاة عـــرفة وانتصارها على سرحان . وتدفقت الدماء حارة فى عروق الزوج وعصفت به ثورته ، فاذا به يمد يده الى كرسى قريب ويرفعه ثم يهوى به على رأس فردوس ، وترنحت فردوس وسقطت على الأرض ، والكرسى يرتفع فى الهواء ليهوى عليها . واستمر سويلم يضرب ويضرب ويضرب حتى صارت الفاجرة جثة هامدة ، وهو مستمر فى ضربها دون أن يحس مما يفعل شيئا .

واحة الخيال

عزيزى خيرى :

هذه الرسالة ليست بنت اليوم .. راودتنى منذ ذلك اليوم . كنت أدخل غرفتى وأغلق علىّ بابى وأتهيأ للكتابة ، ولكنى كنت كلما جلست الى القرطاس لأبثك لواعج نفسى أحسست خجلى يقوم حائلاً بينى وبين تسطير ما أحس ، فما كان لفتاة أن تبعث الى شاب لا يعرف عنها شيئا — وان كانت تعرف عنه كل شىء — برسالة تشكو له فيها ما تقاسى من وجد ..

ظل ذلك الخجل يقهرنى حتى ليلتى هذه ، فقد دخلت الى فراشى بعدأن اطمأننت الى عودتك من مقهاك ، وحاولت النوم ولكنى أرقت ولم تغمض لى عين ، وتقلبت فى فراشى كأنما أتقلب على جمر ، فقد تآمر علىّ خيالى فأحضر صورتك أمام عينى فى شكول تؤجج النار فى الفؤاد ، فطغت احساسات الحب فملأت صدرى حتى كادت تكتم أنفاسى ، فلم أجد لها منفسا الا أن أقوم فى هجعة الليل لأسكب شواظ القلب على رسالة أبعث بها اليك ، لعل نارى تبرد وقلبى الذى أضنانى يهدأ والخيال الشارد السارح بجناحيه ، فيدثر نفسى القلقة الحائرة هدوء وان كان هدوءا الى حين ..

رأيتك يا حبيبى أول مرة بعد ظهر يوم لن أنساه .. كنت ذاهبة الى طبيب الأسنان وكنت عائدا من عملك ، فما وقعت عيناى عليك حتى تملكنى احساس غريب ، شعرت بروحى تهفو اليك ، وانطلقت فى طريقى وما ابعدت خطوات حتى تلفت خلفى برغمى لأمتع العين برؤيتك ..

وانتهت زيارتى للطبيب وعدت الى البيت ، فجلست فى الشرفة استروح نسيم الأصيل ، وفجأة شعرت كأن جناح حمامة يخفق فى جوفى .. كان قلبى يضطرب . رأتك عيناى وأنت مقبل من دارك منطلق الى الميدان ، فقفز قلبى فى سرور الولهان ..

تبعتك بعينى مضطربة النفس ، حتى اذا اختفيت عن ناظرى ظل قلبى يتبعك ، وانقضى النهار وأقبل المساء وأنا أفكر فيك . وجاء أوان مغادرتى الشرفة وتحركت لأدخل الى غرفتى ، ولكن لم يطاوعنى قلبى ، لم يشأ أن يغادر الشرفة قبل أن يطمئن الى أوبتك .. مرت من الليل ساعات وأنا جالسة ارصد الطريق ، فاذا لمحت شبحا قادما حسبته أنت فتسرى فى بدنى رهبة لذيذة ، وطال مكثى وما تسرب الملل الى فقد كنت مفعمة بالنشوة ، لأنى أرقب عودة رجل خفق له القلب ..

علمنى حبك يا حبيبى أن الظلام مرتع خصب للخيال ، وراحت الأوهام تنمو فى فكرى وتزدهر فى نفسى ، فتنتشى روحى ويرضى فؤادى . وفجأة اشتد وجيب قلبى .. رآك فى حلكة الليل قبل أن تميزك عيناى ، وبقيت أتبعك بنظرى حتى اختفيت ثانية فى الظلام ، فغادرت الشرفة وأنا أحس خفة وانشراحا .

صارت الشرفة مأواى ، فى الصباح أهرع اليها لاستجلاء

بلمحتك ، وفى الظهر انتظر عودتك ، وعند الأصيل أرقب خروجك الى مقهاك ، أما الليل فكان مسرح الأحلام . .

فكرت مرة فى أن اتبعك لعلى أستطيع أن ألفت نظرك الى ، فارتديت ثيابى قبل موعد خروجك عند الأصيل ، ووقفت فى شرفتى قلقة تتجاذبنى خواطر متضاربة تترجح بين الاقدام والاحجام ، ولمحتك قادما فاندحر ترددى ، ووجدت نفسى أهرول وأنطلق كأنما كنت واقعة تحت تأثير منوم مغناطيسى ، وهبطت الدرج قفـــزا ووصلت الى الطريق وقلبى فى حيرته واضطرابه ، وأحسست رهبة تسرى فى من قمة رأسى الى أطراف أصابع قدمى . . مشت فى بدنى رعدة وتدفق الدم حارا الى وجهى ، وتلفت بعيون زائغة فألفيتك تسير أمامى ، فأغذذت سيرى حتى اذا اقتربت منك ضيقت من خطوى كأن قوة خفية أرغمتنى ، وتبعتك على البعد كأنما كنت منجذبة اليك ، حتى اذا لمحتك تدخل مقهاك وقفت أديم اليك النظر وأنا سعيدة ، ثم عدت راضية من حيث جئت .

وفى يوم تقابلنا وجها لوجه ، ولا أكذبك القول فأقول انها مجرد مصادفة ، فما أحب وأنا أعترف لك بحبى أن أكذب عليك ، كانت هذه المقابلة ثمرة تدبير فكرت فيه ليالى وأياما ، يا طالما قابلتك فى الحياة وهممت أن أبتسم لك كما فعلت فى الخيال ، حتى جمد وجهى وعز على الابتسام ، فكرت فى أن أدعوك . . أن أهتف باسمك ، وفتحت فمى وأطبقته ولم ينبعث منه صوت ، تحطمت الألفاظ على شفتى فعدت الى البيت حانقة على نفسى ، وثار قلبى على فأخذ يخزنى وخزا ما أقساه ! . .

ومرت على ليلة ليلاء . . ليلة لن أنساها ما حييت ، جلست

فى الشرفة أرقب عودتك وكان الظلام يرخى ستوره السود والسكون يسيطر على المكان ، فراح خيالى يرتع حرا طليقا ينعم بأعذب الرؤى وألطف التخيلات ، ومر الوقت ووافى ميعاد أوبتك فأرهفت منى الحواس ، وجعلت أتفرس أشباح الغادين الأطمـئن الى عودتك ، وانقضت ساعة ثم ساعة ولم تقع عليك عيناى ، فتحرك قلقى وثارت نفسى واستولى علىّ ضيق ، وزاد فى كربى أن هجس فى صدرى هاجس جرح روحى راح يوسوس لى انك تنعم اللحظة بحبيبة الفؤاد اذ كنت أنتظرك وقد اندلع فى جوفى نار .

تحركت عقارب غيرتى وراحت تلسعنى لسعا ، وأحسست جمرة نار فى حلقى وعبرات تخنقنى وحنقا يلفنى ، وتمنيت بكل جوارحى أن تعود الآنجو من ذلك العذاب . ولكن الوقت راح يمر ولم تلمحك عيناى ، فخطر لى أن أنسل فى هدوء الليل الى مقهاك أنقب عنك حتى أستريح من حواسى التى تآمرت عنى ، ولكنى جبنت عن تنفيذ ذلك الخاطر الذى طفق يلح علىّ يؤازره القلب الواله الحيران . .

وبرد الجو وصفرت الرياح ، فمشت فى جسدى قشعريرة لم ألتفت اليها . . كنت شاردة فى تيه الخيال غارقة فى بحور الأفكار ، وأشرف الليل على الانقضاء وأنا فى مكانى ، وأخيرا انسللت من الشرفة محطمة النفس مهيضة الجناح .

وأشرقت الشمس وتسللت الى غرفتى ، وما ان فتحت عينى ورأيت الضياء حتى شعرت بخوف يسرى فى صدرى خشيت أن يكون ميعاد خروجك الى عملك قد انقضى وكتب علىّ ألا تكتحل عيناى ذلك اليوم برؤيتك . هممت بالنهوض لأغادر فراشى وأنطلق الى الشرفة ، ولكنى شعرت بثقل فى جسمى عاقنى عن النهوض ،

فتحسست جبهتى بيدى فألفيتها تكاد تنصهر .. لقد سقطت فريسة للحمى وما فطنت الى هذه الحقيقة حتى ارتجفت ، لم أرتجف لمرضى بل خشية أن اهذى باسمك فيتبدى مكنون نفسى ، وينفضح سر قلبى الذى ائتمنت عليه ضلوعى وطويت عليه صدرى ..

ولازمت الفراش وراحت الدقائق واللحظات تمر وئيدة بغيضة ، وعادنى طيفك فى ساعات صحوى فأنعش روحى وأرضى فؤادى .. وفى يوم من أيام مرضى لججت فى التفكير فيك ، وأخذت أناجيك حتى غلبنى النوم فرحت فى سبات ، وفيما أنا غارقة فى نومى رأيت كأنما أنا وأنت فى حديقة رائعة تفتحت أزهارها وغنت أطيارها ، نخطر خفافا على زرع أخضر بهيج ، وقد انسدل شعرى على كتفى فأخذ النسيم يداعبه ، وأنت ترنو الى فى عطف ..

ولمحنا نهرا فهرولنا اليه مسرورين حتى اذا بلغناه ألفيناه من لجين ، ووجدنا زورقا رائعا زين بالزمرد والياقوت انتثر فيه الورد والياسمين ، فركبنا فيه وأخذنا نجدف فى البحر العجيب ، وقد سرى صوت سماوى أخاذ يغنى بأعذب الألحان فعبث بقلبينا ، فملئنا نشوة وفاضت سعادتنا فالتصق رأسانا ..

والتفت الى وفى عينيك حب ، ولففت ذراعيك حولى وضممتنى اليك ، ولم أستطع ان احتمل السعادة التى كنت فيها فاستيقظت خافقة القلب مرهفة الاحساس ، وما ان هدأت مشاعرى حتى أخذت افكر فى حلمى اللطيف ، منشرحة الصدر راضية النفس قريرة العين ..

وكأنما كان ذلك الحلم الحبيب البلسم الشافى لمرضى ، فما اشرقت شمس النهار حتى أبللت مما كنت أقاسى ولكنى لم أبرأ من حبى ، فما ملكت قواى حتى هرعت الى الشرفة خافقة الفؤاد أرقبك فى الغدو والآصال ، وطغى حبى وفاض فلم يعد يسعه جوفى ولم

يعد يقنع بسبحات الخيال ، وطمع فى أن يغمر الحبيب بالاحساسات الفوارة ..

اننى أكتب اليك وليس لى على نفسى سلطان ، قهرنى حبى وتمرد على قلبى واستبد بى وأرهقنى حتى ارغمنى على أن أكتب اليك ، فنزلت على حكمه مقهورة وان كان فى ذلك طعنة لكبريائى فجلاء ..

القلم يرتجف بين اصابعى ، وقلبى يطفو ويغوص ويملى على كلمات ، والعرق البارد ينبثق من جبينى . ليتنى استطيع أن اعصى ما يأمر به قلبى ولكن هيهات ، فها هى ذى يدى تسطر ما يمليه الفؤاد .

سأنتظرك عند محطة الترام فى الميدان فى الساعة الخامسة من مساء يوم الخميس ، ولن أذكر لك عنوانى حتى لا تعتذر اذا كنت لا تستطيع أن توافينى فى ذلك الميعاد ، فانى أريد أن أحيا الأيام وأنا سعيدة يداعبنى أمل لقياك ، والى ذلك اليوم المرتقب أتمنى لك ولنفسى أسعد الأحلام ..

(فتحية)

وطوى خيرى الرسالة وهو نشوان يحس خدرا لذيذا ، فما دار بخلده أن هناك من تحبه هذا الحب العارم الجبار . كانت حياته مجدبة قبل أن تصل اليه هذه الرسالة الحارة فما كان ممن يتفيئون ظلال واحة الخيال . كان يضرب فى صحراء الحياة محدود الآمال ولكن ما أن قرأ هذه الرسالة حتى شرد بصره وفتحت فى رأسه أبواب التصورات .

راح يفكر فى فتحية ومن تكون وما شكلها ، وتفتق ذهنه فراح يجلب له ممثلات السينما الحسان ، فيستعير لفتحية من هذه قوامها .. ومن تلك نضارتها .. ومن ثالثة عينيها النجلاوين ..

ومن رابعة صدرها الفاتن الرائع ، واسترسل في تخيلاته حتى تجسمت فتحية في ذهنه نموذجا للحسن والجمال ..

وخرج الى الطريق وسار يتلفت يمينا ويسارا ، وفوق وتحت ، ويتفرس في الشرفات .. فلمح أكثر من فتاة جذابة تصلح أن تكون صاحبة الرسالة النابضة بالحب والحياة ، فطفق يوزع ابتساماته هنا وهناك لعل ابتسامة منها تكون من نصيب فتحية فتنزل السكينة بالقلب الولهان ..

وخطر له أن يحيى من في الشرفات الممتدة على جانبى الطريق بكلتا يديه كما يفعل الزعماء والأبطال ، فابتسم لذلك الخاطر الساخر الذى اقتحم عليه خياله في هذه اللحظة الحاسمة من لحظات حياته ، لحظة التنقيب عن الجميلة التي فتحت له قلبها قبل أن يطرقه ، ووهبت له السعادة والحب ..

انطلق وهو يحس كأنما بعث خلقا جديدا .. انه محبوب وما أسعد أن يكون المرء محبوبا ، وتدفقت في عروقه دماء حارة ما أحس حرارتها قبل يومه ، وسرى في صدره أمل حلو أنعشه وأحيا نفسه من الموات ..

ولمح في شرفة من الشرفات فتاة جذابة ممشوقة القد دقيقة الخصر ، تهدل شعرها الكستنائى المتموج فأخفى في دلال جزءا من وجهها الحلو الناصع البياض فزادها حسنا ، وبدت ذراعاها البضتان كأنما خرطتا من الشمع ، فخفق قلبه لجمالها الآسر الذى يلعب بالقلوب ويعبث بالرجال ..

ووقف يرنو اليها مذهولا ، وبقى مدة ثم انتبه الى نفسه وراح يتلفت حوله ، فرأى رجلا مسنا أبيض الشعر ضئيل الجسم محدودب الظهر جذب حسنها عينيه ، فراح يتفرس في جمالها ويتلفت نحوها كلما خطا في الطريق خطوات ، فابتسم خيرى

مزهوا ، فجمال من أحبته سبى الرجل الفانى وجعله يتلفت وفى عينيه اعجاب ، كشباب فوار الحماس ..

وشرق وجهه بابتسامة عذبة ومرر يده على شعره تحية ، فخيل اليه أنها ابتسمت له ومدت يدها تصلح شعرها المتهدل ، فانشرح صدره وصدق ما حزره قلبه ، انها هى بعينها فتحية .. فتحية التى بعثت اليه برسالتها الحارة ترد على تحيته بتحية مثلها .

وسار فى طريقه وهو نشوان . سره انه اهتدى الى فتحية ووجدها نابضة بالحياة كرسالتها ، ووسع فى خطاه فقد دب فيه نشاط غريب ، وما أن بلغ الميدان حتى أحس رغبة فى أن يعود ويتطلع الى فتحية ، فدار على عقبيه وقفل عائدا من حيث جاء ، فلما لاحت له الشرفة ظلت عيناه متعلقتين بها وانداح فى صدره خدر لذيذ ..

ودنا من الشرفة فخفف من خطوه ورفع رأسه وراح ينقل فيها عينيه ، وقد تحرك فى جوفه اضطراب شهى ، كانت شفتاها ممتلئتين مغريتين ووجنتاها فى لون الورد وعيناها آسرتين ساحرتين ، فانبعث من عينيه بريق أخاذ ، وسار الهوينى وهو يتلفت حتى اختفت الشرفة عنه ..

وعاد الى داره فاسترخى فى مقعد وثير ، وأخرج الرسالة ونشرها وراح يعيد تلاوتها فغمرته نشوة اعظم من النشوة التى غمرته أول مرة ، انه يرى الآن بعين خياله فتحية بشعرها الكستنائى المتموج ، ووجهها الحلو الصبيح ، توجه اليه خطابها فتنتشله من دنياه المحدودة لترفعه الى عوالم رحيبة من السعادة والهناء ..

وضع الرسالة على ركبتيه وأطلق لخياله العنان ، فرأى نفسه وفتحية فى تلك الحديقة البديعة التى رآها فى منامها وهما يهرولان الى النهر الرقراق ، ثم يتجهان الى الزورق الرائع ويركبان فيه

وينطلقان ليسبحا فى عالم السعادة ، وقد أسند رأسه الى رأسها . واسترسل فى تخيلاته فألفى نفسه يضمها الى صدره فى وله ويمطرها بقبلاته الحارة ، فأحس وهو فى مقعده بنشوة عارمة . .

وتبدل خيرى . . دب فيه نشاط بعد خمول واستيقظت حواسه بعد سبات ، وسبح خياله فهام فى سماوات التصورات بعد أن كان مشدودا الى الأرض ، وصار يعتنى بهندامه يقف أمام المرآة سويعات ، وما كان يرتدى جاكتته الا وهو هابط فى الدرج لا يلوى على شىء .

وراح يحيا على الأمل يعد الدقائق والساعات ، يرصد يوم الخميس فى قلق ورجاء . وما انبلج صبح ذلك اليوم الموعود حتى فتح صوان ملابسه ، وأخذ يتفرس فى حللة يقلب هذه ويفحص عن تلك ، حتى اطمأن الى حلة رمادية جذابة فتناولها ، ونادى الخادم الصغيرة وأمرها أن تذهب بها الى المكواء .

واتجه الى حيث يضع أحذيته وانتقى منها حذاء وضعه فى عناية بالقرب من المشجب ، ثم ارتدى ملابسة وخرج الى الطريق وسار نشيطا ، حتى اذا بلغ الشرفة لم يجد بها أحدا فانقبض وتريث قليلا لعلها تقبل فيبتسم لها ، مؤكدا أنه سينتظرها فى الموعد المضروب . . ولكن مرت لحظات دون أن تفد الى شرفتها فانطلق وهو يحس ضيقا ، لكن سرعان ما انقشع ضيقه فقد خطر له أنها تتأهب للقاء الذى يهفو اليه قلبها . .

وذهب الى عملة وهو جذلان ، راح يداعب زملاءه طلق الوجه ولم يستطيع أن يطوى صدره على سره ، فأخذ يقص عليهم قصة الفتاة الفتانة التى أحبته وبعثت اليه تلتمس منه أن يوافيها اليوم لتطفىء لهيب الغرام ، وأرضى ذلك الحديث غروره فجعل يحدثهم عما سيفعله بعد اللقاء .

وانقضى ميعاد العمل فى الديوان فأسرع بالعودة وهو فرحان ، وما بلغ أول الطريق الذى يقطن فيه حتى سرى فى جوفه قلق لذيذ ، ومد بصره الى شرفتها فلمحها فرقص قلبه سرورا ، واغذ السير حتى اذا أصبح تحت شرفتها رفع رأسه وافتر ثغره عن ابتسامة ، فخيل اليه انها تبادله الابتسام ، فسار الى بيته وهو هيمان ..

وجلس الى طعامه ، وما أن ازدرد لقيمات حتى عافت نفسه الطعام . كان شارد اللب مشغولا بما يجرى فى رأسه من رؤى وتخيلات ، فنهض وغادر السفرة ، وذهب الى مقعد طويل تمدد فيه وأرخى لخياله العنان ..

راح يفكر فيما سيفعله عند اللقاء ، فرأى أن يذهبا الى مصر الجديدة ، ثم يستقلا سيارة الى كازينو مونترو الضارب فى صحراء الماظة لينعما بالهدوء وهواء تلك المنطقة الجاف . واستراح الى تلك الفكرة ولكن سرعان ما قفزت الى راسه فكرة أخرى .. انها رأت فى منامها أنهما يذرعان حديقة بديعة ثم انطلقا الى زورق راح يتهادى بهما فى نهر صاف رقراق ، فلماذا لا يحقق لها فى الحقيقة ما رأته فى المنام ؟

واطمأن الى ذلك الخاطر الجديد ، فقر رايه على أن يذهبا الى قصر النيل يجوسان خلال حدائق الجزيرة كفراشتين طليقتين ، ثم يركبان زورقا من الزوارق المنتشرة هناك ، يخطر بهما فى النيل عند الأصيل ، فيمتعان الطرف بمشاهدة الغروب الفاتن الذى يملأ النفوس بالجلال ..

وأخذ الوقت يمر وهو غارق فى بحور النشوة المستمدة من الخيال ، ودقت ساعة الحائط الرابعة فأحس رنينها فى نفسه .. ارتفعت دقات قلبه وأرهفت مشاعره وزحفت الى صدره رهبة

وقام يتأهب للانطلاق للقاء ، فذهب الى المرآة وقرب وجهه وراح يتفرس فى صقالها ، فألفى شعرة نابتة فى خده فجذبها بالملقاط ، ثم أخذ يرجل شعره اللامع ، وارتدى قميصا أبيض هفهافا ، وتناول رباط عنق جذابا وراح يعقده فى حرص ، ومد يده الى العقدة يتحسسها فى رفق ليزيل ثنية خفيفة فى طرفها ..

وتناول حلته الرمادية فى حرص بالغ ، ثم ارتداها ، واخذ يصلح من هندامه ويمد يده الى المنديل المنديل المندلى من جيبة يرفعه قليلا ثم يخفضه قليلا ، ثم يعود ليرفعه .. حتى اذا استراح الى وضعه تقهقر خطوة وجعل يفحص عن صورته فى المرآة .

وأخذت اللحظات تمر فى بطء ، فطفق يذرع الغرفة صاعدا هابطا وقد سيطر عليه اضطراب مشوب بلذة ونشوة ، وخطر له أن يقرأ رسالتها فمد يده وأخرجها ، وراح يقرؤها خافق القلب مرهف الحواس ..

ونظر الى الساعة فألفاها الرابعة والثلث ، فتململ فى ضيق ، واتجه الى الشرفة ووقف يستنشق الهواء ، ولكنه لم يطق أن يبقى فيها طويلا فدخل يقطع الحجرات جيئة وذهابا فى حيرة واضطراب ، واستقر رأيه أخيرا على مغادرة الدار فراح يهبط فى الدرج متمهلا حتى يحافظ على رونق حلته .

وسار يتهادى ، حتى اذا بلغ شرفتها زاد وجيب فؤاده ، ورفع عينيه فلم يجدها فسرت الطمأنينة فى صدره ، انها الآن امام المرآة تتأهب للقياه . آه لو تدرى لأسرعت بالهبوط لينعما بأسعد الأوقات ! وبلغ الميدان فوقف عند محطة الترام يمد بصره الى الطريق الذى ستقبل منه فتحية بقامتها المشوقة ، ووجهها الحلو الصبيح الذى تزينه عينان صافيتان رائعتان ،وفم فى لون العقيق يغرى باللثم والعناق ..

ونظر فى ساعته فارتفع نبضه وزاد خفقان قلبه وسرى الدم حارا فى عروقه ، ان هى الا عشر دقائق ثم تقبل فتحية بذاتها اللطيفة . يا طالما حادثها فى الخيال أرق حديث ، وان هى الا لحظات حتى يناجيها فى الواقع الملموس الذى يفوق سحره سحر الخيال أعذب مناجاة ، وراح يغدو ويروح على الطوار ، وعيناه ترقبان منفذ الطريق الذى ستقبل منه الفتنة والاغراء ..

ووقعت عيناه وهو يتلفت على فتاة مقبلة نحوه . انها تبتسم له وان ابتسامتها تتسع وتتسع ، فرمقها فى دهش فما كان يحسب أن تبلغ الجراة بفتاة أن تغازل شابا مثل هذه المغازلة المفضوحة ، ودنت منه وهمست :

— لقاء سعيد يا خيرى بك ..

ومدت يدها تصافحه ، فأحس راسه يدور وقلبه يغوص فى قدميه وضيقا ينتشر فى صدره . انها فتاة سمراء مفلفلة الشـــعر واسعة الفم جاحظة العينين ، أنفها أقرب الأنوف الزنوج ، وقد انتشرت فى وجهها بقع سوداء زادت فى دمامتها .

وهمس فى صوت مفزوع :

— فتحية هانم ؟!

فانفرج فمها الواسع عن اسنانها الصفراء ، فوقف مذهولا لا يدرى ما يفعل بعد أن انجلت لعينيه الحقيقة البشعة ، ثارت احساساته وامتزجت حتى كاد يتعطل تفكيره . واقبل الترام فصعدت فتحية مسرعة وصعد خلفها دون أن يدرى .

وأخيرا أفاق من المفاجأة البغيضة والترام يجد فى سيره ، وقفزت فى رأسه فكرة فنهض مسرعا وقفز من الترام ، وراح يعدو برهة وهو من الخوف يتلفت !

تصـــدير البشر والفنــون والآداب

لابد لكل مشروع من رأس مال عامل ، فاذا زاد رأس المال على حاجات المشروع العملية كان الجزء الفائض عاطلا واصبح عبئا على المشروع كله ولتصريب مثل هذا الوضع يحول راس المال العاطل الى مشروع آخر فى حاجة الى اموال ليصل الى كفايته القصوى .

واقتصاديات الأمم لا تختلف فى كثير ولا قليل عن المشروعات التجارية فلابد لكل أمة من رأس مال بشرى ، يفـــكر ويخطط وينفذ ، فاذا زاد رأس المال البشرى فى أمة من الأمم على حاجاتها الفعلية كان فائض راس المال البشرى عاطلا ، واصبح عبئا على الأمة كلها ، والعلاج مثل هذه الحالة يصدر فائض البشر الى امم تشكو نقصا فى الأيدى العاملة .

ولا يقصد بتصدير البشر الهجرة النهائية الى دولة اجنبية بل يقصد به فتح أبواب العمل فى مجالات خارجية للفائض البشرى فى دولة من الدول .

والانسان راس مال تتغير قيمته بتغير ثقافته وخبرته ، ومقدار حاجة المجتمع الذى يعيش فيه الى جهوده . وتلجأ بعض الدول التى يزيد فيها رأس المال البشرى على حاجتها انى تصديره لتجنى فوائد ما يعيده راس المال البشرى من فائض جهده الى بلاده .

وتستفيد دول كثيرة من تصدير فائض أبنائها ، بل قد يكون عائد رأس المال البشرى المصدر عصب اقتصاد تلك الدول ، فاليونان ولبنان وسوريا وايطاليا تصدر البشر الى البلاد التى تعانى نقصا فى الأيدى العاملة وتجنى فى ذلك فائدتين ، عائد الجهود البشرية المصدرة ، وتوفيرا فى مأكل أولئك الذين راحوا يعملون فى الخارج ومشربهم وملبسهم ومسكنهم وخدماتهم الصحية والاجتماعية .

ولو فرضنا أن دولة ما نجحت فى أن تصدر الف خبير ، واستطاع كل منهم أن يعيده الى بلده مائة جنيه كل شهر ؛ فمعنى هذا أن حصيلة هؤلاء الخبراء من العملات الأجنبية فى السنة ١٠٠٠ × ١٠٠ × ١٢ = ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه ، فاذا فرضنا أن عائد أى مشروع اقتصادى ٦٪ فعائد هؤلاء الخبراء يساوى عائد مشروعات اقتصادية قيمتها ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ من الجنيهات .

ان ايطاليا وحدها تصدر الى ألمانيا الغربية مليون عامل ، وتصدر اليها يوغسلافيا نصف مليون . وما أكثر البلاد التى تحتاج الى خبراء وصناع وعمال فى العالم ، فأفريقية وألمانيا الغربية وأمريكا الجنوبية وبعض البلاد العربية فى آسيا وأفريقيا تشكو نقص الأيدى العاملة بها ، مما حد ليبيا الى عقد اتفاقيات مع تشاد والمغرب والسودان لتوريد خبراء وعمال زراعيين ، بينما تشكو مصر من تضخم الطاقات البشرية المعطلة .

اننا نقاسى من تضخم رأس المال البشرى وزيادته زيادة هائلة على حاجة البلاد الفعلية وامكانياتها . ولو أننا قد نجحنا حتى الآن فى ايجاد عمل للقادرين على العمل الا أن ذلك كان فى بعض الأحيان على حساب الكفاية الاقتصادية للمشروعات مما أدى الى

خلق بطالة مقنعة ؛ وهذا النجاح لا يمكن أن يستمر طويلا فسنضطر الى أن نقف مشدوهين أمام السيل الجارف من أبنائنا المتطلعين الى العمل .

لقد تفاقمت مشكلة زيادة السكان عندنا فنادى الاقتصاديون والمصلحون الاجتماعيون بضرورة تنظيم النسل . وانى أرى أن هذه الدعوة لا تحل مشكلة قد وقعت فعلا . بل تحاول أن تجد حلا للمشكلة فى المستقبل وأن تحد من خطورتها . اننا نقاسى الآن فعلا من الانفجار السكانى ، وليس لهذه المشكلة من حل الا أن تتفجر الأرض بآبار الزيت أو نجد سوقا خارجية لفائض راس مالنا البشرى او أن يمن الله علينا بالحسنيين معا .

ان البطالة السافرة والبطالة المقنعة وازدحام الوحدات الاقتصادية والفنية وأجهزة الدولة بأفراد لا يستغلون كل طاقاتهم فى العمل راس مال معطل ، بل راس مال يستهلك أكثر مما ينتج مما يعود على اقتصادنا القومى بالضرر ويجعل أمر التخطيط السليم مستحيلا ؛ لذلك آن لنا أن نفرط فى تصدير فائض راس المال البشرى ، لنحقق التوازن بين الانتاج والاستهلاك ولنجنى فوائد ما يعيده راس المال البشرى المعطل عندنا من فائض جهده فى الخارج .

وعلى مصر واجبات يحتمها عليها تاريخها الطويل ، فهى أقدم بلاد العالم معرفة بالزراعة واقامة الخزانات والسدود فواجبها حيال أفريقية أن تنهض بعبء زراعة القارة التى عاشت حتى العصر الحديث على الفطرة وأن تمدها بالمهندسين الزراعيين ومهندسى الرى والعمال الزراعيين والبيطريين والأطباء ونحوهم .

فى السودان ، وفى الصومال ، وفى الحبشة ، ملايين الأفدنة الصالحة للزراعة والتى تحتاج الى الأيدى العاملة بينما

عندنا طاقات زراعية معطلة ، فلو أمكن تصدير تلك الطاقات الى البلاد التى فى شدة الحاجة اليها ، لحققنا الرخاء لتلك البلاد وجنبنا فوائد رؤوس أموالنا البشرية المستثمرة واسترحنا من طاقات مستهلكة .

★ ★ ★

سافرنا فى بعثة اقتصادية فى عام ١٩٦١ الى الصومال وقد تم الاتفاق بيننا وبين الحكومة الصومالية على أن نقيم هناك مجزرا وأن ننشيء صناعة السكر وعلى أن نستصلح الأراضى ونزرعها . وفى الصومال أكثر من عشرين مليونا من الأفدنة البكر الصالحة للزراعة وسكانها لا يزيدون على مليون ونصف مليون نسمة ، ولقد أشفقنا على أنفسنا من خوض غمار هذه المغامرة وان أبدت المانيا الغربية فيما بعد استعدادها أن تقيم المجزر وأن تتقاضى ثمنه من امعاء الحيوانات لصناعة السجق الذى تشتريه المانيا ومن حوافر الذبائح ..

ولقد قامت روسيا بانشاء مجزر هناك ، وتقوم الآن الصين الشعبية باستصلاح الأراضى وزراعتها آليا . وأعتقد أن هذا لن يثبط هممنا بل على العكس سيدفعنا الى اقتحام هذا الميدان الجديد خاصة وأن الظروف جميعها فى مصلحتنا ، فالعلاقات الاقتصادية بين الصومال ومصر كانت قائمة منذ أقدم العصور ، منذ عهد حتشبسوت . ولغتنا ولغة الصومال واحدة وديننا ودينها واحد مما ييسر الزواج بيننا وبينهم والاندماج فيهم .

★ ★ ★

أن افريقيا والدول النامية فى آسيا فى حاجة الى أيد خبيرة لزراعة المساحات الشاسعة التى لم تزرع بعد ونحن والله الحمد من

أول الدول التى عرفت الزراعة فى العالم ، فواجبنا أن ننهض بهذه المسئولية وأن هذه الدول فى حاجة الى أطباء ومهندسين ومحاسبين وزراعيين وفنيين وفى رايى أن الجامعة الأزهرية فى وضعها الجديد أقدر على النهوض بهذا العبء وتزويد تلك البلاد النامية بحاجتها من الخبراء والفنيين ؛ لما للأزهر الشريف من سمعة طيبة فى هذه البلاد . وعلى ذلك ينبغى أن تخطط الجامعة الأزهرية سياستها على تخريج أطباء ومهندسين وتجاريين وزراعيين للعمل فى الخارج تأدية للرسالة العظيمة التى ينبغى أن ننهض بها .

وينبغى على الدولة معاونة الراغبين فى العمل فى الخارج ، ووضع جميع التسهيلات لهم . وقد قامت الدولة فى الآونة الأخيرة بتيسير خروج الراغبين فى العمل الذين قد حصلوا على عقود للعمل ، وهذا عمل مشكور ولكنه ليس كل العمل المطلوب من الدولة ، فمن العسير على العمال الزراعيين أن يبحثوا لأنفسهم عن العمل فى الخارج بل أنه من العسير حتى على المثقفين أن ينهضوا بذلك ، لذلك اقترح :

١ ـــ انشاء جهاز فى الدولة يقوم بالاتصال بالدول التى تحتاج الى أيدى عاملة وأن ينظم معها ايفاد القوى البشرية المصرية .

٢ ـــ انشاء شركات زراعية تختص بالعمل فى الخارج ، يكون لها حق المساهمة مع شركات وطنيـــة فى اصـــلاح الأراضى وزراعتها .

تصدير الفنون والآداب :

كانت مصر من أهم البلاد المصدرة للمصحف الكريم والكتب الدينية والكتب المدرسية ، ولكن فى السنوات الأخيرة ، نظرا لارتفاع أثمان الورق والطباعة قامت دول لمنافسة جمهورية مصر

العربية فى ميدان طبع المصحف الشريف والكتب الدينية . من هذه الدول اليابان وتطبع وحدها حوالى ١٥ مليون مصحف فى السنة ومنها هونج كونج ومنها اسرائيل للأسف الشديد .

وكانت مصر هى الدولة العربية الأولى فى طبع الكتب المدرسية ولكن قامت مطابع فى لبنان وفى شمال أفريقية لطبع تلك الكتب دون استئذان أصحابها وقد ساعد على ذلك نقص الورق وارتفاع أثمانه ولاعادة طبع المصاحف بالجمهورية العربية ، ولضمان عدم وجود أخطاء أو تحريف بها يقترح أن تشجع اقامة مطبعة ضخمة فى المنطقة الجمركية الحرة لتقوم بطبع المصاحف بعد مراجعتها فى الجهات المختصة وتقوم بطبع الكتب الدينية والكتب المدرسية التى تحتاج اليها كل البلاد الناطقة باللغة العربية .

وتجد الأشرطة السينمائية رواجا فى البلاد العربية والبلاد الآسيويه والافريقية ومن الممكن أن نجد لها سوقا فى كندا وأمريكا الجنوبية وكل البلاد التى بها جاليات عربية .

اننا اقدر الشعوب العربية على مخاطبة العاطفة الدينية فى البلاد الاسلامية ، فلو اهتمت السينما المصرية باخراج افلام دينية فستجد رواجا فى أندونيسيا والباكستان والهند وفى كل بقاع الأرض التى ينتشر بها المسلمون . واذكر اثناء زيارتى لأندونيسيا أن وجدت فيلم « بلال مؤذن الرسول » يعرض هناك وقد علمت أن عرضه استمر ستة أشهر كاملة .

وقد وجدت اسطوانات المطربين والمطربات المصريين منتشرة انتشارا يثلج الصدر فى كل بلاد آسيا ، ولكن هذه الأسطوانات لا تصدر من مصر للأسف الشديد ، بل تطبع فى سنغافورة ولا نستفيد من عائد أسطواناتنا مطرباتنا ومطربينا .

وان الحديث عن المطربين والمطربات يجرنا الى الحديث عن دورهم فى جلب عملات أجنبية لبلادنا ، ففريق الخنافس قد طاف فى أمريكا رعاو بملايين الدولارات . واظن أن مكانة مطربينا ومطرباتنا فى العالم العربى مكانة مرموقة . فلماذا لا يقوم هؤلاء المطربون والمطربات باحياء حفلات تحت اشراف الدولة لجلب العملات التى نبنى عليها صرح كياننا ؟ .

انى أعتقد أن من الخير أن تقام الحفلات الأولى لأغنيات مطرباتنا ومطربينا فى عاصمة من العواصم العربية المتعطشة لفننا الغنائى من أن تقام هنا فى القاهرة ، فمثل هذا العمل سيزيد رصيدنا من العملات الحرة فى البنوك وسيمكننا من تنفيذ خطط التنمية .

والكتاب الأدبى قادر على أن يكون موردا من موارد العملات الصعبة لو يسرنا له سبل انتشاره وهذا يمكن أن يتأتى باقامة مهرجانات أدبية فى الدول العربية يحضرها كبار كتابنا وأن تباع كتبهم فى هذه المهرجانات وأن تحدد أسعار مرتفعة للكتب التى يوقع عليها كبار كتابنا .

تصدير الرياضة :

انتقال التعصب للأندية الرياضية من جمهورية مصر العربية الى كل البلاد العربية تقريبا ، واعتقد أنه لو أقيمت مباراة الكأس النهائية فى عاصمة من العواصم العربية ، فى الكويت مثلا ، فالايراد الذى سنحصل عليه سيفوق ما سنحصل عليه من ايراد اذا ما أقيمت هذه المباراة بيننا علما بأن ذلك الايراد سيكون بعملة صعبة .

ومن الممكن أن تقام مباريات بين الزمالك والأهلى فى عواصم

أخرى وفى هذا دعاية طيبة لنا واشباع رغبات اخواننا العرب المتعطشين لمثل هذه المباريات وعائد من العملات الأجنبية .

مراكب الفن :

ومن الممكن أن نخصص مركب لعرض منتجاتنا وآثارنا وفنوننا الشعبية وتطوف بموانى الدول الأوروبية ، تنقل اليهم قطعة من وطننا ؛ ومثل هذه المراكب تجد عادة اقبالا من الأجانب ، اذا ما سبقتها دعاية كافية وهى قادرة على أن تغطى مصاريف رحلتها واعادة فائض من العملات الأجنبية .

ومن الممكن أن تحمل هذه المراكب مندوبين وتجاريين يقومون بابرام العقود أثناء عرض منتجاتنا الوطنية .

المكاتب الخارجية :

من الملاحظ تفكك الصلة بين المكاتب التى تنشأ فى الخارج لخدمة نشاط تجارى أو سياحى أو ثقافى ؛ ففى مدينة روما مثلا نجد مكتبا لشركة الطيران وآخر للسياحة وثالث للتجارة . لماذا لا ينشأ مكتب واحد قادر لخدمة أوجه نشاطنا المختلفة ، مكتب يليق بنا يقوم بخدمة شركات الطيران والسياحة والتجارة والثقافة ؟ .

اننا لو فعلنا ذلك لخفضنا من تكاليف المكاتب المختلفة ولأقمنا مكتبا يعكس نهضتنا الحديثة بكل معنى الكلمة والأمكننا أن نزوده بمسئول قادر على النهوض بهذه الأعباء التى تعود علينا بالخير فى النهاية .

قوافل الصـــداقة :

الفنون والآداب هى الصلة التى تربطنا بالبلاد العربية ؛ دون أن تشوبها شائبة ، لذلك أقترح أن نعد قوافل الصداقة من المطربين والمطربات والأدباء والفنانين والفرق الشعبية وأن تطوف تلك القوافل بالدول العربية تعرض آخر ما أنتجناه من افلام ومسرحيات وكتب أدبية وتحيى حفلات غنائية .

استيراد البشر :

انى أشجع كل الوان التصدير ، لأن التصدير معناه جلب عملات وأدعو الى التضييق فى الاستيراد .. الى استيراد ما تدعو اليه الضرورة القصوى لأن الاستيراد معناه خروج عمـــلات او محاصيل كان من الممكن بيعها والحصول على عملات أجنبية عوضا عنها ، ولا فرق بين استيراد من كتلة غربيـــة أو كتلة شرقية . فالاستيراد فى كل صوره عبء على الميزانية . وعلى الرغم من ذلك فهناك استيراد واحد احبذه وأدعو اليه وأطلب المزيد منه ؛ الا وهو استيراد البشر ؛ ففى ورود السياح الى بلادنا دخول لعملات أجنبية نحن فى أشد الحاجة اليها .

ليس أمامنا لنستطيع أن ننفذ خططنا الا أن نصدر ونصدر ونصدر وأن نعاون كل العاملين فى ميدان التصدير ، فهم يؤدون للبلاد خدمة جليلة ، وانى أدعو أن نفتح أبواب التصدير للجميع لنحقق أهدافنا وأن يكون شعارنا : التصدير لمن استطاع اليه سبيلا .

الفهرست

رقم الايداع ٢٥٩٤

الترقيم الدولى ٠ — ٤٨١ — ٣١٦ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ١٢٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه